وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾

التفسير: أي أن الله تعالى هو الذي خلق الإنسان من الماء أي من النطفة، ثم جعل له أقارب من ناحية أبويه وزوجته.

لقد بيّن الله تعالى في هذه الآية أن الزواج من أكبر أسباب ازدهار التمدن الإنساني، وأن هذا هو الطريق لتقوية الأواصر بين العائلات والأمم. هناك مثل في لغتنا يقول: إنهما متّحدان اتحادَ السكر مع الحليب. ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا: ما السبيل للتوحيد بين أناس غرباء؟ لقد أجاب الله على ذلك هنا وبيّن أن سبيله الزواج بين الرجل والمرأة، إذ يوحّد بين إنسان وآخر وبين شعب وآخر، بل بين بلد وآخر. ثم يُخرج الله تعالى نتيجة الزواج نسلاً جديدًا يكونون أحفادًا للأسرتين ويصبحون كمرآة ترى فيها الأسرتان وجوههما. وتزداد أواصر الحب والوئام بين أقارب الرجل وأقارب المرأة وتتقوى هذه العلاقات وتتعمق.

باختصار، إن الله تعالى قد جمع الشعوب والبلاد عبر الزواج، وهو السبب لازدهار العالم، حيث يجمع الله تعالى أسرتين غريبتين في شخص واحد، ثم يقوي الله تعالى هذه الصلة بحيث إن كلتا الأسرتين تحب أولاد الزوجين حبًّا جمًّا، وكل واحدة منهما تناديهم: أحفادي أحفادي، وتفديهم بكل غال ورخيص. وهكذا يؤدي الزواج إلى الجمع بين أسرتين غريبتين بل بين شعبين وبلدين.

إن زواج المسلم من فتاة هندوسية أو يهودية مثلاً جائز عند الإسلام. لا شك أن هذه العادة قد تلاشت في هذا العصر إلى حد كبير، ولكن إذا تزوج المسلم من هندوسية أو يهودية لبدأ الهندوسي أو اليهودي يفدي الولد الذي يفديه المسلم أيضًا، وزالت الخلافات بين الطرفين إلى مدى بعيد. ولكن هذه الخطة لن تنجح إلا إذا عملوا بها بكثرة وشريطة أن يهتموا بتربية الأولاد بحذر شديد. إن الملك المغولي "أكبر" هو الوحيد الذي عمل بهذا، ولكن غيره من المسلمين لم يعملوا به، فلم

يتحقق ما أراد الملك "أكبر" من زواجه من الهندوسيات، فكان ضرره أكبر من نفعه.

مجمل القول إن الله تعالى يوسّع نطاق الأسر من خلال الزواج من ناحية، ويضيق نطاقها أيضًا من ناحية أخرى. أعني أن الزواج يؤدي إلى النسل، ثم عندما يكثر النسل ينتشرون ويبتعد بعضهم عن بعض. ثم يجمع الله تعالى من هؤلاء الذين قد صاروا بعيدين وغرباء من خلال الزيجات الجديدة، فيجعلهم أقارب ثانية. إذًا، فالزواج يوسع الشقة بين الناس من جهة، ويضيقها من جهة أخرى. والحق أن هذه العلاقة أقوى من امتزاج السكر والحليب، وهذه الميزة لا توجد إلا في الزواج، وإلى هذه المنة الإلهية تشير هذه الآية.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.. أي أن ربك ذو قدرة لا انتهاء لها. فإنه تعالى كما خلَق بالنطفة ملايين البشر في الدنيا المادية، كذلك فإنه تعالى عندما ينـــزل وحيه على أحد من عباده الأطهار ويبعثه لهداية الناس، يكون هذا العبد ضئيل الشأن في الظاهر مثل النطفة الحقيرة، فيظن الناس أن نجاحه مستحيل، ولكن الله ﷻ يُعلي شأنه حتى يجتمع حوله ملايين البشر في مدة قصيرة، فيخرج من خلاله نسل روحاني جديد في العالم، ثم يتشعبون وينتشرون في شتى الأنحاء والأقطار شيئًا فشيئًا. وهذا ما سيفعل الله تعالى بمحمد ﷺ، وسينشر رسالته في العالم أجمع.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾

شرح الكلمات:

ظهيرًا: الظهير: المعين (الأقرب)

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن الناس يستغربون اليوم من التوحيد الذي يدعو إليه محمد ﷺ ويرفضونه، ولكن تعليمه ﷺ هو الذي سيغزو القلوب. ذلك

لأنهم يُحنُون رؤوسهم اليوم أمام أصنامهم التي لا تضرهم ولا تنفعهم، والقاعدة أن العقل الإنساني يتمرد على العمل الذي لا فائدة في إتيانه ولا مضرة من تركه في الحياة العَملية، لذا فلا بد أن يأتي يوم يُعمل فيه هؤلاء عقولهم فيكّفون عن عبادة أصنامهم. أما الآن فإنهم يُعرضون عن الله تعالى ويتكلمون ضده بكلام مسيئ بنية شريرة، بينما يدركون في قرارة نفوسهم أنهم فريسة للتقليد الأعمى. وعلى النقيض قد بعث الله تعالى محمدًا ﷺ بشيرا ونذيرا.. أي ليحرز المؤمنون به ﷺ الرقي والازدهار، وليهلَك الكافرون. فكيف يمكن لقوم مشركين لا تملك أصنامهم لهم نفعًا ولا ضرًّا أن يقاوموا هذا الإنسانَ؟ وهذا ما حصل بالفعل، حيث أصبح المؤمنون بمحمد ﷺ ملوكًا على العالم، أما عبدة الأصنام الذين كفروا به فما انتفعوا من عبادتهم لأصنامهم شيئًا، كما لم يقدروا على أن يفشلوا محمدًا رسول الله ﷺ في إنجاز مهمته.

قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٨﴾

التفسير: أي قُلْ لهؤلاء القوم إني لا أسألكم أي أجر على تبليغي رسالة الله لكم، إنما أجري أنه إذا انشرح قلب أيٍّ منكم للإسلام فأراد عن طيب نفس أن يتبع الطريق الذي يؤدي به إلى الله تعالى، فعليه أن يدخل في الإسلام ويحظى برضوان ربه ﷻ.

تعرض هذه الآية على العالم تلك النظرية الإسلامية السامية التي تعلن أن لكل إنسان حق الحرية في الدين، فهو حرٌّ في أن يختار أي دين شاء، إذ لا يجوز إكراه أحد بهذا الصدد.

لما بُعث النبي ﷺ إلى العالم كان العرب وغيرهم من الشعوب، ترى الجبر والإكراه في الدين جائزًا تمامًا. ولكن القرآن الكريم أبطل هذه النظرية فأعلن بأن

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(البقرة:٢٥٧). فمن أراد أن يُقنع أحدًا فليُقنعه بالدليل والبرهان، ولا يجوز إكراهه على اعتناق عقيدة ما.

ومن هنا يمكن لكل إنسان أن يدرك مدى التسامح الديني الذي يأمر به الإسلام أتباعه، ومدى الحرية الدينية التي يمنحها للناس. ولكن من المؤسف حقًّا أنه برغم هذا التعليم الواضح البين فقد اتهم المستشرقون الأوروبيون النبي ﷺ ظلمًا بأنه قد تعامل مع أتباع الأديان الأخرى بالجبر والإكراه، وأن دينه قد انتشر بحد السيف (تفسير القرآن الكريم لـ "ويري" المجلد الأول ص ٣٥٨). والحق أن الإسلام قد دعا إلى التسامح الديني بما لم يوجد له نظير في أي دين آخر. وإليك بيانه:

أوّلاً: كان الناس قبل بعثة النبي ﷺ يظنون عادة أنه من المستحيل أن يُثبت المرء صدق دينه ما لم يُثبت أن دين الآخرين باطل كلية. ولكن الإسلام أبطل هذه النظرية، وأمر الناس أن يعرضوا على الآخرين محاسن دينهم. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى قد أمر الرسول ﷺ صراحة أن لا ينكر المرء ما يوجد عند غيره من مزايا ومحاسن، وأن كل دين يوجد فيه بعض المحاسن وإنكارها ظلم عظيم. يقول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾(البقرة:١١٤).. أي كان من المفروض أن يعترف اليهود بمحاسن النصارى، ويعترف النصارى بمحاسن اليهود، وليس أن ينكر كل من الطائفتين محاسن الطائفة الأخرى، خصوصًا وإن كتابهما واحد.

إذًا، فإن الرسول ﷺ قد علّم الناس أن يعترفوا بوجود المحاسن في الآخرين، لأن الذي ينكر وجود أي ميزة في الدين الآخر إنما يؤكد على قلة بصيرته. والحق أن هذا الحكم النبوي يبلغ من الروعة والسمو بحيث قد جبر به النبي ﷺ خاطر جميع الطوائف، وأحسن إلى كل الأديان وأتباعهم إحسانًا عظيمًا، لأن إنكار أي ميزة في دين الآخر تجريح شديد لمشاعره.

ثانيًا: أمرنا النبي ﷺ بأن لا يقول المرء أن أتباع الديانات الأخرى تؤمن بها كذبًا وخداعًا للآخرين، بل لقد صرح النبي ﷺ أنه برغم أن ديانات الآخرين قد تعرضت للتحريف والفساد إلا أنهم يؤمنون بصدقها عن حسن نية وإخلاص. فمثلاً لقد قال الله تعالى في القرآن الكريم إن من اليهود مَن إذا تركتَ عنده قنطارًا من المال أمانةً فلن يخون فيها أبدًا (آل عمران:٧٦). وهذا يعني أن قد وُجد بين اليهود قوم كانوا يتمسكون بدينهم بحسن النية ظانين أنه هو الدين الحق.

كذلك قال القرآن الكريم إن من النصارى مَن إذ سمعوا ذكر الله تعالى بكوا واستولت خشية الله على قلوبهم (المائدة:٨٤). فهل من الممكن أن يتمسك مثل هؤلاء بدينهم كذبًا وخداعًا للناس؟

الواقع أن النبي ﷺ قد علّم أمته بهذا الحكم أن عليهم احترام مشاعر الطوائف الأخرى دائمًا، لأنهم متمسكون بدينهم إيمانًا منهم بأنه الدين الحق، وإن لم يكن الأمر هكذا في الحقيقة.

ثالثًا: لقد علّمنا الرسول ﷺ مبدأ هامًا بشأن جميع الشعوب بأن الله تعالى قد بعث أنبياءه بين كل أمة، فقال تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(فاطر:٢٥). إذًا، فهذا المبدأ يأمرنا باحترام نبي كل قوم، وبالتالي يقضي على الكراهية التي مصدرها الزعم بأن الهدي الإلهي إنما نزل في بعض الأمم دون غيرها. وهكذا فإن هذا المبدأ القرآني يجعل المرء يعترف – كعقيدة – بأن أساس كل دين كان على الحق، وأن الهدى موجود في كل دين بدرجات متفاوتة، لأن بداية جميع الأديان كانت من عند الله تعالى. فمهما عبثتْ أيدي الناس بالأديان الأخرى، إلا أنه لا يزال بها بعض الهدى؛ لذا فعلى المرء أن يعيش معهم بسلام، ويعاملهم بحب ووئام، رغم اختلافه معهم في الدين.

رابعًا: يعلّمنا الإسلام أن لا يلجأ المرء إلى السباب نتيجة الحماس أثناء النقاش الديني مع الطوائف الأخرى. يقول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(الأنعام:١٠٩). وهذا يماثل قول

الرسول ﷺ: "من الكبائر شتمُ الرجلِ والديه. قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجلُ والديه؟ قال: نعم، يسبّ أبا الرجل فيسبّ أباه، ويسبّ أُمَّه فيسب أُمَّه". (مسلم، كتاب الإيمان رقم الحديث ١٣٠)

خامسًا: لقد علّمنا النبي ﷺ أن لا نحارب قومًا لمجرد الاختلاف في الدين. كان الناس قبل النبي ﷺ يظنون أنه يجوز لهم الهجوم على الآخرين وتدميرهم لمجرد الاختلاف العَقدي، ولكن الرسول ﷺ أمرنا بخلاف ذلك. يقول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(البقرة:١٩١).. أي يجوز لكم القتال والحرب، ولكن لا تقاتلوا إلا الذين يهاجمونكم عدوانًا، ولا تهاجموا قومًا لمجرد الاختلاف في الدين. وهكذا فإن الرسول ﷺ قد منَح الحرية الدينية لغير المسلمين المحاربين أيضًا، وبين أنه لا يحق لأحد أن يقتل أحدًا من أتباع دين آخر أو يؤذيه بغير حق لمجرد أنه يختلف معه في الدين.

سادسًا: لقد جعل النبي ﷺ من حق الشعوب الأخرى أن يفي لهم المسلمون ما عقدوا معهم من معاهدات، أيًّا كان دينهم. إنه لمن الأخطاء الفادحة التي قد وقع فيها الناس، بمن فيهم المسلمون الذين لا يتدبرون القرآن الكريم، أنه لا بأس في نكث العهد مع الأمم الأخرى، ولكن الرسول ﷺ يأمرنا بخلاف ذلك. يقول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾(الأنفال:٥٩).. أي إذا نكَث قومٌ عهدهم معكم فعليكم أن تخبروهم بأنكم ما دمتم قد نقضتم العهد فلسنا ملزمين به الآن، ولا تشنّوا عليهم الهجوم بدون إنذار. فترى أن أبا سفيان لما ذهب إلى النبي ﷺ في المدينة بعد صلح الحديبية وقال له: أريد أن أعقد الاتفاقية من جديد، قال له النبي ﷺ: أنت الذي تريد ذلك، أما أنا فلا أريد، وهكذا بين له أنه ﷺ مهاجمُهم عن قريب (السيرة النبوية المجلد الرابع: ذكر الأسباب الموجبة للمسير إلى مكة). أما اليوم فترى أن بعض الدول تنوي الهجوم على غيرها، ولكنها تعلن في نفس الوقت بأن بيننا علاقات ودية للغاية. فمثلاً عندما شنّت إيطاليا الحرب على تركيا أعلنت قبل الهجوم بثلاثة أيام أن لها علاقات ودية للغاية مع تركيا بما لم يسبق لها مثيل. وقد فعلت ذلك خداعًا لتركيا لتفاجئها

بالهجوم على حين غرة منها. ولكن أبا سفيان لما جاء المدينة وأعلن أنه يريد عقد المعاهدة ثانية، لم يبقَ النبي ﷺ صامتًا تُجاه طلب أبي سفيان – مع أنه لو التزم الصمت لما وقعت عليه أي مسؤولية؛ لأن المكيين هم الذين نكثوا العهد – ومع هذا فقد قال ﷺ له: إن هذا الإعلان من طرفك فقط، وليس من طرفنا؛ وهكذا لمّح له أنه سيهاجمهم حتمًا.

سابعًا: إن النبي ﷺ أعلن أن المسلم وغير المسلم سيّان في الحقوق المدَنية، وهذا أمر لم يقرّه أحد قبله ﷺ. فمثلا إن اليهود قد نُهوا عن أخذ الربا من إخوانهم اليهود، ولكنه من المسموح لهم أخذ الربا من غيرهم (التثنية ٢٣: ١٩-٢٠ واللاويين ٢٥: ٣٥-٣٧). ولكن النبي ﷺ قال للمسلمين: لا تأخذوا الربا من أحد، لا من اليهود ولا من النصارى ولا من المسلمين (البقرة:٢٧٩). وهذا يعني أنه ﷺ أمرهم بمعاملة الجميع على سواء، وهكذا محا أي فرق بين المسلم وغير المسلم فيما يتعلق بالحقوق المدَنية.

ثامنًا: لقد أمرنا النبي ﷺ أن لا نفرّق بين مسلم وغيره فيما يتعلق بتحرير العبيد. فمثلاً قد وقع مئات الناس أسرى في غزوة حنين، ولكنه ﷺ قد أطلق سراحهم رغم كونهم أعداء. (البخاري: كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم)

تاسعًا: لقد أمر النبي ﷺ الدولة الإسلامية أن تحمّل المسلمين المسؤولية أكثر من غير المسلمين. وطبقًا لهذه القاعدة من واجب المسلمين في الدولة الإسلامية: (أولاً) أن يخرجوا للحرب إذا احتاجوا لذلك، و(ثانيًا) أن يدفعوا العُشر من ريع أراضيهم، و(ثالثًا) أن يؤدّوا الزكاة. أما غير المسلمين فيدفعون ضريبة لا تتجاوز اثنين ونصف بالمئة على كل بالغٍ، وهو أقلّ مما فُرض على المسلمين بكثير. كما لم يفرض الإسلام على غير المسلمين أن يخرجوا للحرب إلا إذا أرادوا بأنفسهم ذلك عن طيب نفس وبعد إذن من المسلمين. (أبو داود: كتاب الخراج والإمارة، باب في أخذ الجزية، وزاد المعاد لابن القيم الجزء الثاني ص ١١٣)

قصارى القول إن النبي ﷺ قد أمر بالتسامح الديني تجاه غير المسلمين بحيث ليس بوسع أتباع أي دين أن يقدموا نظيره عندهم.

أما الآن فأقدّم لكم الأسوة العَملية للنبي ﷺ في معاملته مع أتباع الديانات الأخرى. عندما ندرس التاريخ نجد فيه الأمثلة التالية:

المثال الأول: لقد احترم النبي ﷺ الصلحاء والشرفاء من الشعوب الأخرى. فقد ورد في التاريخ أن المسلمين أسروا بعض المشركين من قبيلة "طيء" في حرب، وكانت بينهم بنتٌ لحاتم الطائي. فقالت للنبي ﷺ: هل تعرف من أنا؟ قال: من أنت؟ قالت: أنا بنت ذلك الرجل الكريم الذي كان يعين الناس على مصائبهم. أنا بنت حاتم الطائي. لم يكن حاتم الطائي مسلمًا، ولكنه كان يحسن إلى الناس، فأطلق النبي ﷺ سراح ابنته لكرمه وإحسانه إلى الناس. وكان أخوها يهرب هنا وهناك خوفًا من أن يُقبض عليه، فأعطاها النبي ﷺ مالاً وراحلة وأمرَها بإحضار أخيها أيضًا. فذهبت وأتت به. فأسلم لما رأى من النبي ﷺ من معاملة شريفة. ثم قبِل النبي ﷺ شفاعة بنت حاتم الطائي في قومها، فعفا عنهم أجمعين. (السيرة الحلبية المجلد الثالث ص ٢٥٤، باب يذكر فيه ما يتعلق بالوفود التي وفدت عليه ﷺ، وفود عدي بن حاتم الطائي)

لقد تبين من هنا أن النبي ﷺ لم يعترف بمحاسن أتباع الأديان الأخرى باللسان فقط، بل قد تعامل مع أقاربهم وقومهم بالحسنى، ومنّ عليهم أيضًا. وكانت نتيجة ذلك أنه لما انضمّتْ قبيلة "طيء" إلى أهل الردة بتحريض من البعض زمن خلافة أبي بكر رضي الله عنه، تقدم ذاك الابن لحاتم الطائي الذي كان يفر من الإسلام في يوم من الأيام، ونصح قومه، فدخلوا في الإسلام ثانية (الطبري، الجزء الرابع: ذكر بقية الخبر عن غطفان: سنة ١١)

المثال الثاني: هو ما حدث مع نصارى "نجران". لقد حضر وفد منهم للنقاش مع النبي ﷺ حول ألوهية المسيح عليه السلام، وبرغم أن هؤلاء جاءوا مؤيدين للشرك إلا أن النبي ﷺ سمح لهم بالعبادة على طريقتهم في مسجده، فأدوا فيه صلاتهم متجهين نحو الشرق أمام الجميع. (زاد المعاد المجلد الثاني ص ٣٥، فصل في قدوم وفد نجران، والسيرة النبوية لابن هشام المجلد الثاني: أمر السيد والعاقب وذكر المباهلة)

فمن ذا الذي يمكنه أن يقول بعد رؤية هذه المعاملة النبوية أن النبي ﷺ جاء ليظلم الناس ويزهق الأرواح. كيف يمكن لمن جاء لسفك الدماء أن يسمح لأهل

ديانة أخرى بأن يصلّوا صلاتهم أمام عينيه في مسجده الذي قال عنه إنه "آخر المساجد"، والذي تفضُل فيه الصلاة على ما سواه كثيرًا (مسلم: كتاب الحج، باب فضل الصلاة بمسجدَي مكة والمدينة)، أقول: في ذلك المسجد، وأمام النبي ﷺ.. ذلك النبي الذي جاء لإقامة التوحيد في العالم، أراد النصارى أن يقوموا بعبادتهم مع صلبانهم، فيقول ﷺ لهم: يمكنكم أن تصلوا كما تشاءون ولا حرج في ذلك أبدًا. إن كبار دُعاة التسامح الديني اليوم لا يجدون من الشجاعة ما يجعلهم يسمحون لأتباع ديانة أخرى أن يقوموا بعبادتهم في معابدهم أو مساجدهم. إنما جماعتنا هي الوحيدة اليوم التي أحيت هذه الأسوة النبوية، إذ أعلنت عند إرساء حجر الأساس لمسجدها في لندن:

" إن هذا المسجد إنما يُبنى لعبادة الله فقط، لكي تقوم محبة الله في العالم ولكي يتجه الناس إلى الدين؛ إذ لا سلام لهم ولا ازدهار لهم بدون ذلك في الحقيقة. وكل من يريد أن يعبد الله تعالى لن نمنعه من عبادته تعالى في هذا المسجد، شريطة أن يراعي القواعد التي سيضعها المشرفون على هذا المسجد، وشريطة أن لا يخلّ بعبادة أولئك الذين يبنون هذا المسجد تلبية لحاجاتهم الدينية." (جريدة "الفضل" ٢٠ نوفمبر/تشرين أول ١٩٢٤م ص ٥)

أتذكر جيدًا أنه في إحدى المرات عقد الآريا الهندوس اجتماعا لهم في قاديان، وأثاروا فيه ضدنا ضجة كبيرة. وبعد انتهاء الاجتماع جاء خطباؤُهم لمقابلتي، فقلت لهم: لقد سمعتُ أنكم عانيتم من ضيق مكان اجتماعكم، ولو أتيتموني لدبّرت لكم المكان في مسجدنا. فقالوا: أصحيح أنك تسمح لنا بعقد الاجتماع في مسجدكم؟ قلت: لم لا؟ إذا كان رسولنا ﷺ قد سمح للمسيحيين بأداء عبادتهم على طريقتهم في مسجده، فكيف لا أسمح لكم بإلقاء المحاضرة في مسجدنا؟ فقال أحدهم: إذا سمحتم لنا فإني مستعد لإلقاء المحاضرة في مسجدكم اليوم. قلت له: إني أسمح. وبالفعل ألقى هذا الهندوسي خطابًا في مسجدنا "الأقصى". ثم بعد خطابه ألقى الحافظ روشن علي ﷺ خطابًا أجاب فيه على اعتراضات الهندوس على الإسلام

وهم حاضرون. وكانت النتيجة أنهم امتنعوا عن عقد اجتماعهم في قاديان، وقد استأنفوا عقده هناك ثانيةً بعد حوالي ثلاث عشرة سنة.

إذًا فمن المستحيل أن يقدم أي دين نظيرا للتسامح الديني الذي يعلّمه الإسلام.

المثال الثالث: لقد أمر النبي ﷺ بالإحسان إلى الجيران وإن كانوا من أهل ديانة أخرى، وقد حثّ النبي ﷺ على ذلك لدرجة أن الصحابة كانوا يلتزمون بوصيته هذه بحرص شديد. فقد ورد أن◉ ابن عباس رضي الله عنه دخل بيته ذات مرة، فوجد أن لحمًا قد أهداه له بعض المعارف، فسأل أهله: هل بعثتم منه شيئًا لجاري اليهودي؟ وقد أعاد هذا الكلام مرارا حتى قال له أهله: لماذا تلحّ هكذا؟ فقال: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه".

هذه هي الأسوة التي عامل بها النبي ﷺ أتباعَ الديانات الأخرى. لقد كان ﷺ شديد الحرص على أن لا تُجرح مشاعرهم. فذات مرة قال يهودي لأبي بكر رضي الله عنه: والذي جعَل موسى أفضل الأنبياء. فلطَمه أبو بكر رضي الله عنه. فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ، فزجر ﷺ أبا بكر.. ذلك الإنسانَ العظيم.. على ما فعل. (البخاري: كتاب الأنبياء، باب وفاة موسى عليه السلام وذكرُه بعد)

فترى أن اليهود كانوا يعيشون تحت حكم المسلمين وأحدهم قد فضّل موسى عليه السلام على نبينا الكريم ﷺ بأسلوب أغاظ أبا بكر.. ذلك الإنسان الهادئ الرقيق القلب.. حتى لطمه. ولكن الرسول ﷺ يزجر أبا بكر ويقول: لماذا فعلتَ هكذا؟ إن لهذا كل الحق أن يعتقد ما يشاء.

المثال الرابع: صنعتْ يهودية طعامًا للنبي ﷺ عند فتح خيبر، ودسّت فيه السمّ. فلما أخذ النبي ﷺ منه لقمة، نزل عليه الوحي يخبره أن الطعام مسموم، فامتنع عن الأكل. ثم دعا اليهودية وقال لها: سممتِ الطعام؟ قالت: من أخبرك؟ وكان في

◉ لقد وجدنا رواية بهذا المعنى عن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنه وهي: "عن عبد الله بن عمرو أنه ذبح شاةً، فقال: أهديتم لجاري اليهودي؟ فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننتُ أنه سيورثه." (أبو داود: كتاب الأدب، باب في حق الجار). *(المترجم)*

يد النبي ﷺ ذراع الشاة المسمومة، فأشار إليها وقال: إن هذه تخبرني أنها مسمومة. فقالت اليهودية: لقد سممتُه لأنني قلت في نفسي: إن كنتَ نبيًّا صادقًا، فسيخبرك الله أن الطعام مسموم، وإن كنتَ كاذبًا استراح الناس منك. (المواهب اللدنية الجزء الثالث: غزوة خيبر)

المثال الخامس: كلما خرج النبي ﷺ في غزوة أمر جنوده بشكل خاص بأن لا يهدموا معابد قوم، ولا يقتلوا رجال دين، ولا يقتلوا أمرأة ولا شيخًا ولا طفلًا. (البخاري: كتاب الجهاد: باب قتل الصبيان في الحرب، وباب قتل النساء في الحرب، والموطأ: كتاب الجهاد، باب النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو، والطحاوي: كتاب السير، باب الشيخ الكبير هل يُقتل في دار الحرب)

كان الناس قبل زمن النبي ﷺ يقتلون القسيسين والرهبان (تواريخ مسيحي كليسا (بالأردية) من عام ٣٣م إلى ٦٠٠م، ص ١٥٦-١٦١)، ولكن الرسول ﷺ نهى عن ذلك بتاتًا. فإذا كان النبي ﷺ يعادي الأديان الأخرى كما يزعم خصومه، فلماذا أمر أصحابه أن لا يتعرضوا لرجال الدين؟ كان عليه أن يقول لهم: اقتلوهم قبل أي شخص آخر. ولكنه ﷺ قال: من حمل عليكم السيف فيجوز لكم قتله، ولكن لا تتعرضوا للذين يشتغلون بأمور دينهم.

المثال السادس: ثم من عادة الناس أنهم لا يراعون مشاعر قوم يحاربونهم، بل يسعون جاهدين لقمع الشعوب المغلوبة وتجريح مشاعرهم وعواطفهم. ولكن ما أعظم النبي ﷺ شأنًا، فإن المكيين ظلوا يضطهدونه ﷺ وأصحابه طيلة ثلاثة عشر عاما. لقد قتلوا المسلمات طعنًا بالرماح في فروجهن، وجرّوا صحابته ﷺ على الرمال المحرقة في الشمس، وقد أخرجوا الجمر من المواقد وألقوا عليها المسلمين، وفقأوا عيون بعض المسلمين والمسلمات، لقد بلغ ظلمهم درجة أن النبي ﷺ اضطر لترك وطنه. ولما هاجر من مكة إلى المدينة لم يتركه أعداؤه ليعيش هناك بسلام، بل قد حاولوا أن يهيّجوا عليه ﷺ أهل المدينة، كما أثاروا عليه ﷺ قيصر وكسرى (البداية والنهاية الجزء الثالث: في مبايعتهم في الأذية لآحاد المسلمين). ولكن النبي ﷺ لما خرج للهجوم على أهل مكة برفقة عشرة آلاف من الأبرار ووصل قريبًا من مكة، قال

بعض قواده إن هذا اليوم سيكون يومًا عسيرًا على أهل مكة، إذ سننتقم منهم اليوم. فتقدم أبو سفيان للنبي ﷺ وشكى إليه بأن هذا قد جرّح مشاعرنا. فدعا النبي ﷺ هذا القائد وعزله، وقال: لماذا لم تراع مشاعر أهل مكة الكافرين.*

فترى أن النبي ﷺ كان لا يعلم عندئذ كيف يكون رد فعل أهل مكة ضده، وماذا سيكون مصير هذه الحرب، ومع ذلك عزل أحد قواد جيشه بناءً على شكوى زعيم المكيين الذي أفنى عمره كله في محاربة المسلمين، بل كان يقود ضدهم جيوش الكافرين. هل بوسع أحد أن يقدم مثالا واحدًا كهذا من تاريخ حروب العالم كله؟ كلا، لن تجد أحدًا عزل ضابطًا بسيطًا، دعك قائدًا من قواده، عقابًا على أنه هدد الأعداء في ساحة القتال وقال: سننتقم منكم ونذيقكم اليوم وبال أعمالكم.

ورد في تاريخ الغرب عن شخص شهير "أبراهام لينكولن" أن الناس في زمنه صاروا حزبين متحاربين، أحدهما كان يدعو إلى القضاء على الرق والعبودية، والآخر يعارض ذلك، وكان أبراهام لينكولن" من أصحاب الذين يريدون القضاء على العبودية. ومن أكبر ما يُثنى به على هذا الرجل أنه لما هزم الأعداء خرج إلى بيت القائدِ المهزوم مطرقَ الرأس، بل يقال أنه كان يدعو ويستغفر في تلك الحالة. فاستأذن منه قواده بإطلاق الموسيقى العسكرية فرحةً بالنصر، فمنعهم وقال: لا، لأن هذا سيجرّح مشاعر الخصوم. هذا أكبر ما وُصف "أبراهام لينكولن" من الخصال الحميدة.

ولكن علينا أن نضع في الاعتبار أن أبراهام لينكولن لم يكن قد تعرّض لأي أذًى شخصي من قبل خصمه، ولكن الرسول ﷺ لما شن الهجوم على مكة فإنما سببه أنهم نقضوا المعاهدة التي عقدوها معه. ثم إنه ﷺ قد ذهب لمحاربة أولئك القوم

* هذا الحادث مذكور في "السيرة الحلبية الجزء الثالث: فتح مكة، والسيرة النبوية لابن هشام: ذكر الأسباب الموجبة للمسير إلى مكة"، غير أنه قد ورد فيهما أن عمر ﷺ هو الذي شكا هذا القائد إلى النبي ﷺ. *(المترجم)*

الذين ظلوا يضطهدون المسلمين قرابة ربع قرن من الزمان، والذين لم يألوا جهدًا في محاولة قتله ﷺ وقتل أصحابه طيلة ثلاثة عشر عامًا خلال الفترة المكية، ثم راحوا طيلة سبع سنوات أخرى يخرجون للقضاء عليه ﷺ بعد أن قطعوا مسافة مائتي ميلٍ في كل مرة. وبرغم هذا الاضطهاد والظلم من قبل أهل مكة، عندما دخلها النبي ﷺ، عفا عن أهلها عفوًا لا يساوي أمامه ما فعل إبراهام لينكولن مع خصومه. لقد جمع النبي ﷺ أهل مكة، وقال لهم: ماذا ترون إني فاعل بكم؟ والواقع أنه ﷺ لو قطعهم إربًا عقابًا على جرائمهم لكان أهون مما يستحقونه في رأيي. ولكنهم أجابوه وقالوا: نرجوك أن تعاملنا كمعاملة يوسف مع إخوته. فقال ﷺ: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا أنتم الطلقاء، فقد عفوت عنكم. وهكذا كان ختام هذه الحرب العظيمة التي استمرت بينه وبين أعدائه طوال عشرين سنة. (السيرة الحلبية الجزء الثالث: فتح مكة)

هل بوسع أحد أن يقول بعد رؤية هذه الأسوة الرائعة أن محمدًا ﷺ قد ظلم غير المسلمين، وحاول إكراههم على دينه بحد السيف؟ لا شك أن البعض يعترض نتيجة التعصب والجهل، ولكن الذي يتدبّر الحقائق لا يملك إلا أن يعترف بأنه لم يوجد في التاريخ أحدٌ كان أرحمَ بأعدائه من محمد ﷺ. لا جرم أن يوسف عليه السلام أيضًا قال لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم، ولكن يوسف قال هذا الكلام لإخوته حيث أبوهم وأمهم يشفعان لهم، أما الذين كانوا قد عُرضوا على النبي ﷺ، فقد قتلوا أقاربه وأخوته. لقد مثلوا بجثة عمه ﷺ حمزة رضي الله عنه. لقد تسببوا في وفاة خديجة رضي الله عنها؟ وكانوا قَتَلةَ بنته ﷺ الحبيبة زينب وهي حامل - رضي الله عنها؛ كان زوجها بعثها إلى المدينة كي لا تتعرض في مكة لمضايقة أعداء الإسلام، ولكنهم نفروا دابتها وهي خارجة إلى المدينة، فسقطت منها وأجهضت، ثم توفيت نتيجة هذا الحادث. ما هي المشاعر التي كانت تنتاب يوسف عليه السلام حين عُرض عليه إخوته اللهم إلا أنهم قد طردوه من وطنه؟ أما النبي ﷺ فكانت روح أبي طالب تقول للنبي ﷺ صارخة في ذلك الموقف: إن هؤلاء هم القوم الذين قتلوا ذلك الإنسان الذي دافعَ عنك سنوات طويلة. وكانت روح خديجة ماثلة أمامه ﷺ

عندئذ في عالم الخيال وتقول له: أنسيتَ كيف ضحيتُ من أجلك بمالي وثرائي وراحتي وكل ما أملك؟ فها هم الذين قتلوني واقفون أمامك، فخُذْ منهم ثأري. كما كانت روح حمزة ﷺ تقول للنبي ﷺ: ها هم الذين مثّلوا بجثّتي وبقروا بطني وأخرجوا منه كبدي. وكانت روح بنته ﷺ ماثلة أمامه تقول له: هؤلاء هم الأشقياء الذين لم يخجلوا من الهجوم على امرأة حامل لا حول لها ولا قوة. هؤلاء هم الذين آذوني وتسببوا في موتي. ثم كان النبي ﷺ يرى أمامه أرواح مئات الصحابة الذين كان يحبّهم أكثر من أقاربه. وكان بينهم ذلك الصحابي العظيم الذي حين قبض عليه الكفار وأرادوا قتله فسألوه: ألا تحبّ أن يكون محمد مكانك هنا، وأنت تعيش مرِحًا بين أهلك وأولادك؟ فأجابهم: والله، إني لا أحب أن أكون جالسًا في بيتي مطمئنًا ويُشاك النبي ﷺ في رجله بشوكة أثناء مشيه في شوارع المدينة. (المرجع السابق، والبداية والنهاية الجزء الثالث: مبايعتهم في الأذية لآحاد المسلمين، الاستيعاب للقرطبي: زينب بنت رسول الله ﷺ، والسيرة النبوية لابن هشام، الجزء الثالث: ذكر يوم الرجيع). لقد قتل الكفار مثل هؤلاء الصحابة الذين كان يحبّهم النبي ﷺ جدًّا، فكانت أرواحهم ماثلة أمامه في عالم التصور وتقول له: هؤلاء هم الذين قتلونا، فانتقم لنا منهم الآن. ورغم هذه المشاعر المرهفة الجياشة ما قال لهم النبي ﷺ إلا مقولته الشهيرة: "لا تثريب عليكم اليوم".

فمن قال بعد رؤية هذه الأسوة الرائعة العظيمة أن الإسلام لا يعلّم التسامح الديني، فهو أشدُّ الناس عمًى!

وكان من نتائج هذا التسامح الديني أن أتباع الديانات الأخرى قد احتلّوا مناصب مرموقة في البلاد الإسلامية زمن حكم المسلمين. في عهد النبي ﷺ وعهد خلفائه الراشدين كان الإسلام يمر بحالة من عدم الاستقرار بسبب الحروب، ولم تكن قد قامت بعدُ دولةٌ تتخذ فيها شتى الطوائف القرارات بالتشاور فيما بينها، لذا فلم يكن من الممكن أن يُعطَى عندها غير المسلمين بعض حقوقهم السياسية بصورة كاملة. ومع ذلك قد أُعطوا حقوق السيادة قدر الإمكان. فمثلاً قد كتب النبي ﷺ

إلى أهل "مقنا" رسالة صرح فيها: "ليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو مِن أهل رسول الله". (مجموعة الوثائق السياسية ص ٣٦: معاهدته ﷺ مع أهل مقنا)

فهنا قرر الرسول ﷺ بأنه يمكن أن يكون حاكم منطقة ما من غير المسلمين.

وبرغم أن الطوائف المختلفة في عهد خلفاء الرسول ﷺ لم تكن تعيش في الدولة الإسلامية في سلام تام، إلا أن حقوقهم هذه كانت محفوظة. فمثلاً يقول العلامة شبلي: لقد قام عمر ﷺ بتوسيع نظام الجيش، فلم يكن هناك تخصيص لقوم أو لقطر أو لدين أو لطائفة للانضمام إلى الجيش. فكان آلاف المجوس يعملون في الجيش الإسلامي كجنود متطوعين يتلقون من الدولة رواتب شهرية. وكان بعض المجوس منخرطين في الجيش النظامي المرابط.

كذلك ورد بأنه كان في الجيش الإسلامي أبطال من اليونان والرومان أيضًا، فكان خمسمئة منهم ضمن الجيش الذي فتح مصر. وعندما عمّر عمرو بن العاص مدينة "الفسطاط" أسكنَهم في حارة منفصلة. ولم يخلُ الجيشُ المسلم من اليهود أيضًا، إذ كان ضمن الجيش المسلم الفاتح لمصر ألف يهودي.

كذلك من الثابت تاريخيًا أن أهل الطوائف الأخرى كانوا يتقلدون مناصب القواد في الجيش المسلم. فقد كان في عهد عمر ﷺ قوادٌ فرسٌ في الجيش المسلم وأسماؤهم محفوظة في كتب التاريخ، وقد ذكر العلامة شبلي أسماء ستة منهم كالآتي: سياه، خسرو، شهريار، شيرويه، شهرويه وأفرودين. وكان هؤلاء يتلقون رواتبهم من بيت المال، وكانت أسماؤهم مسجلة في سجل أصحاب الرواتب. (الفاروق: لشبلي نعماني (بالأردية)، الجزء الثاني: تنظيم الجيش ص ٢٠٤-٢٠٥)

أما بعد الخلفاء الأربعة الراشدين فقد ورد في التاريخ أن أحد المسيحيين يدعى ابن أثال كان وزير المالية في عهد معاوية ﷺ.

(History of the Arabs, Part 3 P.196)

أما في زمن الخلافة العباسية فكانت الحكومة الإسلامية منظمة، فتمّ تشكيل مجلس يمثّل مختلف الطوائف والأقطار، وكان من بين أعضائها يهود وصابئون وزرادشتيون أيضًا.

(A short story of the Saracens by Amir Ali, p.274-275)

وقد اختير مسيحي وزيرًا للدفاع زمن الخليفة العباسي المعتضد بالله، وكان اسمه صابي. وكان للخليفة العباسي المتقي وزير مسيحي يدعى تنوخي. (المرجع السابق ص ٣٥٥)

أما خلال عهد الأسرة البويهية، فكان للسلطان عضد الدولة وزير مسيحي اسمه نصر بن هارون. (المرجع السابق)

أما في إسبانيا فالثابت من التاريخ أن أتباع الأديان الأخرى كانوا يتقلدون خلال حكم المسلمين هناك منصب قاضي القضاة أيضًا. ففي عهد الحَكَم الثاني ابن عبد الرحمن الثالث قد تم تعيين أحد المسيحيين اسمه وليد بن خيزران قاضيًا في قرطبة من قبل الحكومة الإسلامية (المرجع السابق ص ٥٣٠). كما كان لعبد الرحمن الثالث وزير يهودي يدعى ربي حسدي شبروت (المرجع السابق ص ٥٧٧).

ويخبرنا التاريخ أنه كان في إسبانيا مجلس حكومي يضم غير مسلمين أيضًا، وكان أحدهم مسيحي اسمه (Gomez son of Antony) وذات مرة دعا الملك عبد الرحمن الثالث الأساقفة الأسبان إلى جلسة سياسية كبيرة، ولكنه لم يستطع أن يحضره بنفسه لمرض أصابه، فقام بتعيين هذا المسيحي نائبًا له في هذه الجلسة. (المرجع السابق ص ٤٩٩)

وكان المسيحي صموئيل بن عارف وزيرًا في الحكومة الإسلامية بغرناطة. (أخبار أندلس (بالأردية): ترجمة خليل الرحمن مجلد ٣ ص ١٤٦)

وقد كتب "سكوت" في كتابه "تاريخ أندلس" أن الملوك المسلمين كلما أرادوا بعث سفير بعثوا اليهود المرموقين (المرجع السابق ص ١٤٥)

وفي عهد الفاطميين بمصر قد تقلد غير المسلمين مناصب مرموقة حيث اتخذ الملك الفاطمي العزيز بالله وزيرًا مسيحيًا يدعى عيسى بن نسطور.

(History of the Arabs P.620)

كما تؤكد كتب التاريخ الأخرى أن كثيرًا من النصارى واليهود كانوا وزراء في عهد الملوك الفاطميين.

(A short story of the Saracens by Amir Ali P.413)

كان السلطان المغولي "أورنغ زيب" أكثر السلاطين المسلمين بالهند تعرضًا لتشويه السمعة، ولكن الثابت تاريخيًا أن هذا السلطان ما كان يسمح بالتمييز بين مسلم وغيره فيما يتعلق بالأمور السياسية، وكان يستدل على ذلك بقول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾(الكافرون:٧). فذات مرة جاءه طلب بإزاحة الذميين من المناصب المرموقة، فردّ عليه وقال: لا علاقة للدين بأمور الدنيا، ويجب أن لا نجيز التعصب فيها. ثم قرأ قول الله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، وقال: لو قبلنا هذا الطلب لوجب علينا أن نقتل جميع الراجات الهندوس ورعاياهم أيضًا!

(Preaching of Islam by Sir Thomas Arnold p.214 & Anecdotes of Aurang Zeb by Sir Jadhn & Circar Section 3, P.86-88)

وقد ورد في مراسيم السلطان "أورنغ زيب" قوله الشهير: "يجب منح المناصب الحكومية بناء على الجدارة والكفاءة، وليس على أي اعتبار آخر".

(Preaching of Islam by Sir Thomas Arnold p.214)

وهناك مؤرخ آخر يصف حكم المغول في الهند قائلا: "إن الإسلام هو الدين الرسمي لمنطقة البنغال، ولكن هناك مئة هندوسي إزاء مسلم واحد فيما يتعلق بتقلد الوظائف، أما المناصب الحكومية المرموقة فتخصص لأفراد الديانتين كلتيهما.

(A new Account of the East Indeas Vol.2 P.14)

وليس بخافٍ على أحد أن السلاطين المغول بالهند قد عينوا الهندوس قادة في الجيش المسلم، بل جعلوا بعضهم رؤساء القواد أيضًا، ومن الأمثلة الشهيرة على ذلك "مان سنغ" و"جسونت سنغ" و"جَي سنغ". (دربار اكبري (بالأردية) ص ٥٣٥، و"أورنغ زيب" (بالأردية) ص ٥٠٠)

لقد كان تسامُح المسلمين مع غيرهم بيّنًا لدرجة أن غير المسلمين أيضًا اضطروا للاعتراف بذلك. فقد كتب المؤرخ المسيحي الشهير جرجي زيدان ما نصه:

"ومن العوامل الفعالة في سرعة نضج العلم في النهضة العباسية، وكثرةِ ما تُرجم في تلك المدة القصيرة، أن الخلفاء أصحابَ تلك النهضة كانوا يبذلون كل مرتخص وغال في سبيل نقل الكتب، ويرغّبون النَقَلةَ وغيرهم بالبذل والإكرام والمحاسنة، بقطع النظر عن مللهم أو نحلهم أو أنسابهم، وقد كان فيهم النصراني واليهودي والصابئ والسامري والمجوسي. فكان الخلفاء يعاملونهم كافةً بالرفق والإكرام، مما يصحّ أن يكون مثالاً للاعتدال والحرية وقدوةً لوُلاة الأمور في كل العصور". (تاريخ التمدن الإسلامي المجلد الثالث ص ١٨٣: باب الكتب التي تُرجمت في النهضة العباسية)

لقد ثبت مما سبق من الأحداث والأقوال أن الإسلام لا يجيز لأتباعه معاملة أهل الديانات الأخرى بالقسوة بأي شكل، بل إنه يحمي حقوقهم، ويحرّم كل ظلم وبخس في حقهم. ورد في التاريخ أن "رسول الله ﷺ أُتي برجل من المسلمين قتل معاهدًا من أهل الذمة، فقدّمه رسول الله ﷺ، فضُرب عنقه، وقال: أنا أولى مَن أوفى بذمته" (نصب الراية لأحاديث الهداية: كتاب الجنايات، باب ما يوجب القصاص)

ومن أجل ذلك قد قال الإمام أبو يوسف إن المسلم والذمي في عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين كانا سيَّينِ فيما يتعلق بالتعزيرات والقضايا المدَنية، ولم يكن بينهما أي تمييز مطلقًا. (كتاب الخراج ص ١٠٨)*

وذات مرة تضايق المسلمون من شرور يهود خيبر، فأخذوا بهائمهم وأكلوا من ثمار بساتينهم. ولما بلغ ذلك النبيَّ ﷺ غضب عليهم جدًّا، وقال: "إن الله ﷻ لم يحلّ لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضربَ نسائهم، ولا أكلَ ثمارهم، إذا أعطَوكم الذي عليهم". (أبو داود:كتاب الخراج، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات)

---

* نص ما ورد في كتاب الخراج هو: "قال في المسلم يسرق من الذمي أنه يلزمه ما يلزم السارق من المسلم، وكذا لو كان السارق ذميًا يلزمه ما يلزم السارق المسلم. قال حدثنا أشعث عن الحسن قال: من سرق من يهودي أو نصراني أو أخذ من أهل الذمة من غيرهما قُطع". (كتاب الخراج: فصلٌ في أهل الدعارة والتلصص والجنايات وما يجب فيه من الحدود) *(المترجم)*

وفي إحدى المرات كان الصحابة في سفر مع النبي ﷺ، فأخذوا بعض غنم الكافرين وأخذوا يطبخون لحومها، ولما علِم النبي ﷺ بذلك أمرهم بأن يهريقوا القدور، وقال: إن أكل مال السلب أسوأ من أكل الحرام.◈

وذات مرة وقع بعض صبيان المشركين ضحية لهجوم الجيش الإسلامي، فحزن النبي ﷺ حزنًا شديدًا، وقال لأصحابه: إن صبيانهم أناس مثلكم. "ما بال قوم قتَلوا المقاتلةَ حتى تناولوا الذريةَ". إياكم أن تقتلوا الصبيان. (مسند أحمد الجزء الرابع ص ٢٤: حديث الأسود بن سريع)

قد يفكر أحد هنا ويقول: إذا كان الإسلام ينوّه بالتسامح الديني مع أتباع الأديان الأخرى لهذه الدرجة فلماذا حمَل النبي ﷺ السيف ضد الكافرين في حياته المدَنية؟

والجواب أنه مما لا شك فيه أن النبي ﷺ قد رفع السيف ضدهم، ولكنه قد رفعه دفاعًا فقط. لقد حاول العرب القضاء على الإسلام بحد السيف، وسعوا طوال ثلاثة عشر عامًا جاهدين لرد المسلمين عن دينهم بأنواع الاضطهاد والعدوان، فأذِن الله تعالى للمسلمين بأن يردوا بالسيف على مظالم الكافرين الذين أرادوا القضاء عليهم بحد السيف، حتى تزول العقبات التي وضعوها في سبيل انتشار الدين. فثبت أن تلك الحروب إنما كانت دفاعية صدًّا لعدوان الكافرين. فقد صرح الإسلام للمسلمين بأن عليهم أن لا يقاتلوا إلا الذين يقاتلونهم وأن لا يقاتلوهم إذا انتهوا عن قتالهم (البقرة:١٩١-١٩٤). وإن استخدام السيف من أجل الدفاع ليس بأمر قبيح أبدًا. هل كان صعبًا على الدين - الذي قد خلَق حَمَلة السيوف هؤلاء الذين ضحّوا بكل غال ورخيص من أجل دينهم رغم معارضة أهل البلد كلهم - إقناع الآخرين بصدقه بقوة الأدلة والبراهين؟

◈ نص الحديث هو: "عن عَباية بن رفاعة، عن جده رافع قال: "كنّا مع النبي ﷺ بذي الحليفة، فأصاب الناس جوع، وأصبنا إبلاً وغنمًا، وكان النبي ﷺ في أخريات الناس، فعجّلوا فنصبوا القدور، فأمر بالقدور فأُكْفئتْ، ثم قسَم، فعدل عشرة من الغنم ببعير." (البخاري: كتاب الجهاد، باب ما يُكرَه من ذبح الإبل والغنم في المغانم) *(المترجم)*

بيد أن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: ماذا تعلِّم الكتب التي يؤمن بها هؤلاء المستشرقون المسيحيون الذين يطعنون الإسلام بأنه دين السيف والإرهاب؟ علينا أن نرى فيما إذا كان أنبياؤهم يُعتبرون صادقين بحسب المبدأ الذي يقترحونه؟

لقد ورد في التوراة – التي قال المسيح عليه السلام إنه لمن المستحيل "أن يتغير منها حرف واحد أو نقطة واحدة" (مت ٥: ١٨) – أنه إذا حاربك أهل قرية: "فحاصِرْها، وإذا دفَعها الربُّ إلهُك إلى يدك فاضْرِبْ جميعَ ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفالُ والبهائمُ وكلُّ ما في المدينة كلُّ غنيمتها فتغتنمُها لنفسك، وتأكل غنيمةَ أعدائك التي أعطاك الربُّ إلهُك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدًّا التي ليست من مُدنِ هؤلاء الأمم هنا. وأما مدنُ هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهُك نصيبًا فلا تستبقِ منها نَسَمةً ما، بل تحرّمها تحريمًا الحثِّيِّين والأَمُوريين والكَنْعانيين والفرِزِيين والحوِّيين واليَبُوسيين كما أمَرك الربُّ إلهُك، لكي لا يعلِّموكم أن تعمَلوا حسبَ جميعِ أرجاسهم التي عمِلوا لآلهتهم، فتخطئوا إلى الرب إلهكم". (التثنية ٢٠: ١٢-١٨)

هذا هو التعليم الذي قدّمه موسى، وظل يشوع وداود وغيرهما من الأنبياء يعملون به، ومع ذلك يعتبرهم اليهود والنصارى أنبياء الله الصادقين، ويؤمنون بأن التوراة كتاب حق نزل من عند الله تعالى!

وقد جاء المسيح عليه السلام في آخر السلسلة الموسوية، وقال لأتباعه: "لا تقاوِموا الشر، بل من لطَمك على خدك الأيمن فحوِّلْ له الآخر أيضًا" (مت ٥: ٣٩). ويستنتج المسيحيون من هذا أن المسيح عليه السلام قد نهى الناس عن الحرب والقتال؛ ولكنا نجد في الإنجيل ما يخالف ذلك، كقول المسيح عليه السلام:

"لا تظنوا أني جئتُ لألقي سلامًا على الأرض. ما جئتُ لألقي سلامًا بل سيفًا". (متى ١٠: ٣٤)

وكذلك قال: "ومَن ليس له فَلْيَبِعْ ثوبَه ويشترِ سيفًا". (لوقا ٢٢: ٣٦)

ومن الواضح أن الأمرين الأخيرين يتعارضان مع ما قاله المسيح عليه السلام من قبل. إذا كان المسيح عليه السلام قد جاء لنشر الحرب فما معنى قوله بأن مَن لطمك على

خدك الأيمن فحَوِّلْ له الآخَرَ؟ فلا بد من أحد الاثنين: فإما أن يقال أن التعليمين متعارضان، وإما أن لا يؤخذ أحدهما بظاهره، بل يجب تأويله للتوفيق بينهما. إننا لا نناقش هنا ما إذا كان قول المسيح "مَن لطَمك على خدك الأيمن فحوِّلْ له الآخر أيضًا" صالحٌ للعمل به أم لا، وإنما نناقش ما إذا كان العالم المسيحي قد تورع عن شن الحروب عبر تاريخه كله بسبب تعليم المسيح هذا أم لا. إن الأمر الواقع يؤكد أن المسيحية قد خاضت الحروب ضد الأمم الأخرى إبان غلبتها في روما في بداية أمرها، ولم تكن هذه الحروب دفاعية فحسب، بل عدوانية أيضًا. وأما اليوم وقد صار العالم المسيحي غالبًا على العالم ثانية فهو لا يزال يخوض الحروب، وهي ليست حروبًا دفاعية فقط، بل هي عدوانية كذلك. والفرق الوحيد أن الفريق الذي ينتصر في الحرب يقولون عنه أنه كان ملتزمًا بالحضارة المسيحية، والحق أن الحضارة المسيحية لم يعُدْ لها في هذا العصر أي معنىً سوى ما يفعله الفريق الغالب. عندما يتحارب فريقان فكل واحد منهما يدعي أنه يحارب من أجل الحفاظ على الحضارة المسيحية، وعندما ينتصر أحدهما يقال إنه كان ملتزمًا بالحضارة المسيحية. مع أنه ليس هناك شيء اسمه الحضارة المسيحية في حقيقة الأمر.

إذًا، فالعالم المسيحي ما زال يخوض الحروب منذ زمن المسيح عليه السلام حتى اليوم، وتدل القرائن على أنه سيظل كذلك في المستقبل أيضًا. فثبت من ذلك أن العالم المسيحي قد أكد بعمله أن القانون المسيحي الحقيقي هو قول المسيح عليه السلام:"لا تظنوا أني جئتُ لألقي سلامًا على الأرض. ما جئتُ لألقي سلامًا بل سيفًا"، وقوله: "ومَن ليس له فَلْيَبِعْ ثوبَه ويشترِ سيفًا"؛ أما قول المسيح عليه السلام: "من لطَمك على خدك الأيمن فحوِّلْ له الآخر أيضًا" فإما أنه كان قانونا خاصا أقره المسيح من أجل المصلحة بالنظر إلى ضعف العالم المسيحي في بدايته، أو أنه قانون خاص بأفراد الأمة المسيحية فقط، ولا ينطبق على علاقاتهم بالشعوب والحكومات الأخرى. وبالفعل تجد بعض القسيسين الذين يقدمون هذا التأويل لقول المسيح عليه السلام هذا.

ولو قيل أن المسيح عليه السلام لم يعلّم الحرب، بل علّم الصلح، فهذا لا يعني أن الذي يخالف تعليمه لا يكون من عباد الله المقربين. ذلك لأن العالم المسيحي ما زال حتى

اليوم يعدّ موسى ويشوع وداود من عباد الله المقرّبين مع أنهم دعوا إلى الحرب وخاضوا فيها. بل إن بعض الأبطال القوميين الذين خاضوا الحروب من أجل شعوبهم ضد الأعداء في عهد المسيحية يُدعون قديسين بحسب ما أفتى به البابوات في مختلف العصور.

ولكن الإسلام يقدّم تعليمًا وسطًا، فلا يأمر أتباعَه كما أمر موسى - بحسب الكتاب المقدس - أن يدخلوا في بلاد الآخرين عدوانًا ويقتلوهم بحد السيف، كما لا يفعل ما تفعل المسيحية حيث تعلّم أتباعها من ناحية "مَن لطَمك على خدك الأيمن فحوِّلْ له الآخر أيضًا"، ومن ناحية أخرى تهمس في آذانهم: عليكم أن تبيعوا ثيابكم وتشتروا بها السيوف، بل إن الإسلام يقدّم تعليمًا يتفق مع الفطرة الإنسانية تمامًا، وهو السبيل الوحيد لقيام الأمن والسلام في العالم، إذ يعلّم أتباعه أن لا يشنّوا على أحد هجومًا عدوانيًا، أما إذا هاجمهم أحد ورأوا أن عدم التصدي له سيزيد الفتنة ويقضى على السلام، فعليهم أن يردّوا على عدوانه.

فبالله عليك، أظالم هذا التعليم، أم أنه التعليم الوحيد الذي يمكن أن يستتب به الأمن والصلح في العالم؟

لقد عمل الرسول ﷺ بهذا التعليم، فظل يتحمّل الظلم والأذى في الفترة المكية، ولم يرد الحرب. ثم لما هاجر إلى المدينة وطارده العدو هناك أيضا، أمره الله تعالى بالتصدى له توطيدا للحق والصدق، لأنه يشنّ حربًا عدوانية ويريد محو الإسلام. ومع ذلك فقد أوضح الله تعالى للمسلمين وقال ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(البقرة:١٩١).. أي قاتلوا الذين يقاتلونكم، ولكن يجب أن تكون حربكم ابتغاء وجه الله تعالى، لا شفاءً لغليلكم ولا إرضاءً لنفوسكم. ولا ترتكبوا أي عمل عدواني حتى في الحرب لأن الله تعالى لا يحب المعتدين.

كما أمر الله تعالى ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(الأنفال:٣٩-٤٠).. أي يا محمد، قل

لهؤلاء الأعداء إنهم لو انتهوا عن الحرب فسيغفر لهم ما قد سلف، أما إذا استمروا في العدوان و لم يرتدعوا عنه فقد علموا كيف كان مصير أعداء الأنبياء السابقين، وسيلقون نفس المصير. وأيها المسلمون، عليكم أن تستمروا في قتالهم إلى أن لا يؤذَى أحد بسبب دينه، ويصبح أمر الدين متروكا في يد الله تمامًا. أما إذا انتهى الأعداء عن عدوانهم فلا تحاربوهم لمجرد كونهم أتباعًا لدين باطل، لأن الله تعالى يعلم أعمالهم وسيحاسبهم عليها كيفما شاء، أما أنتم فلا يجوز لكم التدخل في أمور دينهم بحجة أنه دين باطل.

ويقول الله تعالى أيضًا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾(النساء:٩٥).. أي أيها المؤمنون، إذا خرجتم للقتال في سبيل الله تعالى فعليكم أن تتأكدوا جيدا من إقامة الحجة على العدو، وأنه يريد القتال في كل حال. أما إذا مال إلى الصلح معكم فلا تقولوا له أنه يخدعنا ولا نتوقع منه الأمن والسلام، وإلا فلن تكونوا مقاتلين في سبيل الله تعالى، بل تُعتبرون ممن يقاتل من أجل الدنيا فقط. فلا ترتكبوا هذا الإثم، لأن الله عنده متعُ الدنيا وبيده أمرُ الدين أيضًا. وتذكروا أنه ليس الهدف الحقيقي قتل أحد إذ لا تعلمون أنه لربما يهتدي غدًا. ألم تكونوا مثلهم من قبل، فمنّ الله عليكم ووفقكم للإسلام؟ فلا تتسرعوا في قتل أحد، بل تبيّنوا حقيقة الأمر جيدًا. واعلموا أن الله تعالى مطّلعٌ تماما على أعمالكم.

لقد أوضح الله تعالى هنا للمؤمنين أنه رغم نشوب الحرب يجب عليهم التأكد قبل القتال تمامًا ما إذا كان العدو يريد شن الهجوم العدواني عليهم، أم أنه قد أخذ أهبة القتال نتيجة خوف ما. فإذا كان لا يريد قتالهم وإنما أخذ أهبته نتيجة خوف فيجب أن لا يقولوا له بأن تجهيزه العسكري يدل على أنه يريد الهجوم عليهم، وأنه لا يمكنهم الاطمئنان من جانبه؟ بل عليهم أن يصدّقوا قول العدو معتبرين أنه ربما كان ينوي قتالهم من قبل، ولكنه قد رجع عن عزمه الآن. ذلك أن المؤمنين

شاهدون بأنفسهم أن القلوب تتغير والأفكار تتبدل، إذ كانوا أعداءً للإسلام بالأمس، وقد أصبحوا من جنوده اليوم.

إذًا، فرغم وجود هذه الأحكام الواضحة فإن قول أعداء الإسلام أنه لا يعلم التسامح الديني مع غير المسلمين، وأنه يجيز إكراه الناس على الإسلام بحدّ السيف لجسارةٌ بغيضة وانحراف مشين عن العدل والإنصاف.

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾

التفسير: يُسيء الناس في بلادنا استعمال لفظ التوكل للأسف. التوكل يعني تفويض المرء أمره لله تعالى كلية، وهذا يعني أن يلتزم بالسنن والقواعد التي وضعها الله تعالى كما يشير إلى ذلك قوله تعالى هنا ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾، حيث بيّن الله تعالى أن التوكل لا يعني أن يترك المرء اتخاذ الأسباب التي خلقها الله تعالى للنجاح، لأن تركه إياها يعني أنه يعتبر قانون الطبيعة عبثًا، ولا يشيد به. أما إذا اعتمد على الأسباب المادية كلية، فقد خالف التوكل أيضًا، لأن من واجبه، إلى جانب الحمد لله تعالى، أن يسبّحه وينزهه عن كل نقص وضعف، ولا يظنّ أنه يملك القدرة الكاملة على فعل ما، وإن بإمكانه أن يفعل ما يشاء. كلا، بل إن الله هو وحده المنزه عن كل نقص، وهو وحده المستحق لكل حمد وثناء. فمن واجب المرء أن يتّبع القوانين التي خلقها الله تعالى إلى جانب توكّله عليه ﷻ. فمثلا إنه تعالى قد

خلق لنا الأيدي والأرجل والعقول والأسباب المادية، والمراد من تفويض المرء أمره لله تعالى أن يستعمل كل واحد من هذه النعم والأسباب فيما خُلق من أجله.

فالمقام الأول في التوكل على الله تعالى أن نستعمل كل ما منحنا من أسباب إلى أقصى حد، وإذا بقي بعد ذلك أي خلل في تدابيرنا، نفوض أمرنا إلى الله تعالى، موقنين بأنه سيسدّ هذا الخلل حتمًا. فمثلا إن النبي ﷺ قام يوم بدر بتنظيم الجيش المسلم أولاً، وأخبر الصحابة بأماكنهم في القتال، وأعطاهم تعليماته عن القتال، ثم بعد ذلك دخل في عريش قد أُعدّ له ليدعو الله تعالى. إنه ﷺ لم يترك صحابته في المدينة، ولم يأت إلى بدر وحده ليدعو فقط، بل أخذ صحابته أولاً إلى موقع القتال، ثم قام بتنظيمهم ونصحهم شتى النصائح، ثم دخل عريشا قد أُعدّ له يدعو الله تعالى ويبتهل إليه. هذا هو التوكل الذي يجب أن نعمل به. فكل من لا يأخذ بالأسباب المادية التي وهبه الله إياها، ويقول قد فوضتُ أمري إلى الله، فإنه كذّابٌ يسخَر بالله تعالى. وكل من يأخذ بالأسباب ويظن أنه هو الذي سينجز هذا العمل، فهو أيضا كذاب، إذ لا يسلّم بالتدخل الرباني في أموره. فسواءً أكان العمل سهلاً أو صعبًا فإن مفتاحه في يد الله تعالى.

لقد سمعت عدة مرات من سيدنا المسيح الموعود عليه السلام وهو يتحدّث عن السلطان التركي المخلوع عبد الحميد. قال حضرته عليه السلام لقد أعجبني قولٌ لهذا السلطان جدا. فعندما استشار وزراءه حول الحرب التي كانت بين تركيا واليونان، قدّم وزراءه أعذارًا كثيرة. كان السلطان عبد الحميد يريد خوض الحرب، ولكن وزراءه كانوا لا يريدونها، فقالوا له: لقد أخذنا أهبتنا للحرب في كذا وكذا من المجالات، ولكنا لم نستطع فعل شيء في مجال واحد هام جدًّا. فربما، بل الأغلب، أنهم قالوا له إن كل القوى الأوروبية متفقة الآن على مساندة اليونان، ولا نستطيع فعل شيء تجاه ذلك. يقول المسيح عليه السلام: لما قدم الوزراء هذا العذر للسطان قال لهم: يجب أن تتركوا خانة واحدة على الأقل لله تعالى أيضًا. وقوله هذا كان يعجب المسيحَ الموعود عليه السلام جدًّا.

فعلى المؤمن أن يترك من جهوده خانة واحدة لله تعالى دائمًا. الواقع أن ليس بوسع المؤمن، بل ليس بوسع أحد، أن يقول إنه لم يبق في جهوده أي نقص وضعف. ومن أراد إنجاز عمله بحيث لا يبق فيه أي فتور ولا خلل، هو أحمق وغبي. كذلك من الحمق أيضا أن يهمل المرء الأخذ بالأسباب كلية. والأوروبيون مصابون بالحمق الأول في هذه الأيام، أما المسلمون فمصابون بالحمق الثاني. إن مثل الأوروبيين كمثل الذي يبني بيتًا، ويجعل له أبوابًا، ويعمل له سقفا، ويشيده جيدا، ثم يقول: الآن لن تستطع النار أن تحرقه، ولن يقدر الزلزال أن يهدمه. أما المسلم فمثله كمثل الذي يريد أن يبني بيتًا، فيكتفي برفع جدار واحد لمترين أو أكثر دون أن يرفع الجدران الأخرى، أو يضع لبيته سقفًا، ولا يجعل له أي أبواب ولا شبابيك، ويتركه هكذا؛ وإذا سئل قال: لقد بنيتُ الجدار ثم تركته متوكلاً على الله ﷻ. ولكن هذا ليس من التوكل في شيء، إنما هو كسل وتهاون، لأن الرسول ﷺ يقول: "اعقِلْها وتوكَّلْ" (الترمذي: أبواب القيامة، باب ما جاء في صفة أواني الحوض).. أي عليك أن تعقل بعيرك أوّلاً ثم تتّكل على الله تعالى. بمعنى أنه يجب على المرء أن يبذل جهده إلى أقصى حد، وعندما لا يستطيع أن يزيد على ذلك ولا يبقي بيده بعد ذلك أي وسيلة ولا سبب، فعليه أن يخرّ ساجدًا أمام الله تعالى ويستعين به واثقًا به. وكأنه إذا أنفذ كل التدابير وأفنى عقله أنه لم يبق هناك شيء، وقالت علوم الدنيا كلها إنه قد استنزف كل جهد ووسيلة، وقالت الفراسة إنه لم يبق في علمه خلل، وقالت الخبرة إنه لم يبق فيه أي نقص؛ فعلى المرء أن يقول عندئذ إنه لا يزال بهذا العمل خلل وفتور، ولكن الله تعالى سيسدّه.

وكأن التوكل نوعان: علميّ وعَمليّ. التوكل العِلمي هو أنه إذا أفنى عقلك وعقول الدنيا كلها وخِبرتُك وخبرة الدنيا كلها بالإجماع على أن عملك قد اكتمل فعليك أن تقول: كلا، من المستحيل أن يخلو عملي من خلل ما، ولكن الله تعالى سيسدّ هذا الخلل بفضله. والتوكل العَملي أن تتخذ كل الأسباب التي خلقها الله تعالى لإنجاز ما تريده، وتبذل في سبيله كل تضحية ممكنة، ومع ذلك تعوزك بعض الأسباب التي لا تستطيع توفيرها، فيظن أهل الدنيا كلهم أنك فاشل، بينما تظل

مطمئنا واثقًا من النجاح دون أن يقترب منك اليأس والقنوط، بل توقن بـــأن الله تعالى لن يخذلك، وأنك ستنجح في مرامك بفضله تعالى حتمًا.

فالنوع الأول من التوكل أنه إذا أكدتْ لك خِبرتك أنه لم يبق في عملـــك أي خلل، تقول أنت: كلا، لا بد أن يظل فيه خلل ما. والنوع الآخر من التوكل أنك لا ترى أي سبيل إلى النجاح، وترى الخلل تلو الخلل، ومع ذلك تظل موقنًا بأن الله تعالى سينجز هذا العمل حتمًا وإن لم يبق هناك سقف ولا جدران.

إذًا فهناك توكلٌ يكون وقت الضعف، وتوكلٌ يكون وقت القوة. وإن التوكّل الحقيقي هو ما يكون وقت القوة؛ ولكن ما نشاهده عادة هو أن الناس إذا بـــدأوا عملاً ما يقولون: نحن الذين سننجز هذا العمل، وسننجزه حتمًا، كل ما نحتاج إليه هو الأسباب المادية. وعندما يجدون الصعوبة في إيجاد الأسباب ويفقدون هممهـــم وتنهار عزائمهم، يقولون: لقد توكلنا على الله تعالى. مع أن التوكل يدعو المرء إلى العكس في الحالتين كلتيهما. فإذا أنجزتَ العمل قال لك التوكـــل إنـــه لم يُنجَـــز، وعندما فشلتَ في إنجاز العمل رغم بذل كل ما في وسعك من جهد ووسيلة، قال لك التوكل: عليك أن توقن بأن العمل سيتم حتمًا بفضل الله تعالى.

وهذا يعني أن التوكل يفتي خلاف عقولنا تمامًا؛ فحين يقول العقل إن الأسباب غير ميسرة وأن الدمار وشيك، يقول لك التوكل: عليك أن تنظر إلى الله تعـــالى، فربُّك مُحْيٍ. وحينما يقول لك العقل: الآن لا خوف من الهلاك لأن كل أســـباب النجاح ميسرة، يقول لك التوكل: عليك أن تخاف الله تعالى، لأنه تعالى ليس بمحي فقط، بل هو مميت أيضًا. فكأنك إذا أنجزت كل شيء عند العقل قال لك التوكل: لا تنس صفة الله المميت، وإذا فشلتَ في إيجاد الأسباب كلها، وظننت أن الهـــلاك قريب، وأحاط بك اليأس من كل مكان، قال لك التوكل: أليس ربك بمحي؟

مجمل القول إن التوكل هو أن يبذل المرء كل ما آتاه الله من طاقات وأسباب، ثم يتّكل على الله تعالى أكثر من الصوفي الزاهد، ويقول إن الله تعالى سيسدّ ما بقي من النقص؛ ثم بعد ذلك يجب عليه أن يصمد أمام اليأس القنوط، ويقول إن ربي لـــن يخذلني أبدًا، وذلك كما قال النبي ﷺ لأبي بكر في غار "ثور" ﴿لا تَحْـــزَنْ إِنَّ اللهَ

مَعَنَا﴾(التوبة: ٤٠).. أي كان علينا أن نهرب من بين العدو فخرجنا، وإذا كان العدو قد جاء على رأسنا الآن فعلى الله تعالى أن يحمينا منه. فلا تحزن لأن الله تعالى معنا.

هذا هو التوكل الذي يأمر به الإسلام.. أي أن نأخذ بالأسباب كلها، ثم نثق بالله تعالى ثقة كاملة بأنه لن يخذلنا مهما حدث. ولكن ما يفعل الناس عندنا لسوء الحظ هو أنه إذا لم يأت عمل من أعمالهم بنتيجة مرضية نسبوها إلى الله تعالى عوضًا عن أن ينسبوها إلى أنفسهم، وقالوا: لقد بذلنا كل ما في وسعنا، ولكن النتيجة كانت في يد الله تعالى، فما هو ذنبنا؟ وهكذا ينسبون تقصيرهم وعيوبهم إلى الله تعالى.

كان الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام يقول مرارًا إن المسلمين اليوم قد أساءوا استعمال لفظ الجلالة لدرجة أنهم قد أفسدوا كل شيء في الدين. ففي الماضي كان المسلم يقول: ليس في بيتي إلا الله، وكان يعني به أن بيته مليء ببركة الله وحكومته، أما اليوم فحينما يقول المسلم: ليس في بيتي إلا الله، فيعني به أنه لا يوجد في بيته أي شيء. فالكلمة التي كانت تُستعمل للإعراب عن بركة الله وحكمه وقدرته، تُستعمل اليوم بمعنى النفي والحرمان.

وهذا ما فعل المسلمون بكلمة التوكل أيضًا؛ فإنهم حين يريدون أن يقوموا بعمل لا يعملونه بطريق صحيح، ولا يبذلون له الجهد كما ينبغي، بل يتهاونون ويتكاسلون، وعندما لا تظهر النتيجة على ما يرام ينسبون فشلهم إلى الله تعالى، ويقولون إنه تعالى هو الذي أتى بهذه النتيجة. نحن لم نأل جهدًا ولم ندخر وسعًا في عملنا، ولكن الله تعالى هو الذي دمّرنا. وكأنهم يظنون أنهم وراء كل نجاح يحرزونه، وأن الله تعالى وراء كل فشل يصابون به. ولكن الواقع أن الله تعالى ليس وراء أي فشل، بل هو وراء كل نجاح؛ وإنما هم الذين وراء كل فشل، ولكنهم ينسبونه إلى الله تعالى تغطية لغبائهم وغفلتهم. الحق أننا لو بذلنا كل ما في وسعنا حقًّا، ثم توكلنا على الله تعالى حقًّا، فمن المستحيل أن لا تأتي جهودنا بنتائج مرضية. وحين لا يأتي عمل من أعمالنا بنتيجة طيبة فالخطأ منا، وليس من الله تعالى. ولو أن المسلمين استوعبوا هذا الأمر، ونسبوا النتائج الطيبة لأعمالهم إلى الله

تعالى، ونسبوا فشلهم إلى أنفسهم، لحدث فيهم انقلاب عظيم. لقد قال إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾(الشعراء:٨١).. أي أن المرض مني أي هو نتيجة لأخطائي، وأن الشفاء من الله تعالى. لقد نبهنا الله تعالى هنا إلى نفس الأمر الذي بينته آنفًا.. أي علينا أن نعزو كل خير إلى الله تعالى، وننسب كل شر إلى أنفسنا. إنه لمن المستحيل أن ننجح ما لم نتحلَّ بإيمان كإيمان إبراهيم عليه السلام، وما لم يتولد فينا ذلك الشعور الذي يشير إليه قوله ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، وما لم ندرك أنه كلما أصابنا ضعف فإنما يصيبنا نتيجة تقصير منا، وكلما أصابتنا قوة فإنما هي من عند الله تعالى. وإذا أحدثنا هذا التغير في أنفسنا تولد فينا حماس شديد للعمل وأحرزنا الرقي تلو الرقي.

فلو أن إبراهيم اكتفى بقوله ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ لدل هذا على اليأس فقط، ولو اكتفى بقوله ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ لدلّ هذا على الرجاء فقط؛ مع أن كلا الأمرين خطأ، إذ لا ينجح المرء في هدفه ما لم يكن إيمانه بين الخوف والرجاء؛ ولذلك قال إبراهيم عليه السلام إنه تعالى قد منحني فرصة القيام وفرصة السقوط أيضًا؛ فإذا لم أبذل كل ما في وسعي سأسقط؛ وإذا بذلت جهدي، ثم توكلت على الله تعالى، فالنجاح حليفي يقينًا. وبتأكيده على الأمرين أوضح إبراهيم عليه السلام أنه لا بد لنا من الجهد ومن التوكل معه. فإذا لم نبذل جهدنا فسنفسد أعمالنا، وإذا لم نتوكل على الله تعالى فلن ننجح أيضًا. فكأن الله تعالى يسد النقص في جهود المرء، ولكنه تعالى لا يرضى أن يكون بديلاً عن بذل المرء جهده كله. لو كان الله تعالى يريد أن يكون بديلاً لجهود المرء لأصبح قول إبراهيم ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ خطأً، ولكنه عليه السلام قد بين بقوله ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ أنه عندما يفعل ما يؤدي إلى مرضه فلا يمنعه الله تعالى من ذلك، كما بين عليه السلام بقوله ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أنه لا يستطيع أن يتماثل للشفاء الكامل بقدرته الشخصية أيضًا، بل إن الله تعالى هو الذي يشفيه شفاء كاملا. وهذا هو سر النجاح والرقي، ومن المحال أن تنجح أمة في هدفها ما لم تفهم هذا السر. كيف أحرزت أوروبا وأمريكا هذا التقدم؟ إنما سبب نجاحهم أنهم قد عملوا بأحد شقَّي هذه القاعدة، أما المسلمون فقد فشلوا اليوم لأنهم تركوا العمل بشقَّيها

كليهما. فمثل الغرب كمثل فلاحٍ ليس عنده زوجان من الثيران بل ثورٌ واحدٌ، فهو يحرث الأرض بمساعدة الثور الواحد، ومثل المسلمين كمثل الذي لا يملك أي ثور، فكيف يحرث الأرض؟ أو مثل الأوروبيين كشخص عنده حصان واحد فيجرّ لـه عربة حصان، وإن لم يقدر على جرّ عربة حصانين. لا شك أنهم قد تركوا التوكل على الله تعالى بتاتًا، ولكنهم لم يتركوا الشق الثاني من القاعدة، بل عملـوا بجـد وكفاح، فأحرزوا الرقي والازدهار. أما المسلمون فلا يعملون بأي شق من الشقين فيفشلون. وحين يفشلون لا يلومون أنفسهم، بل يقولون: لقد بذلنا كـل مـا في وسعنا، ولكن الله تعالى لم يرد لنا النجاح! وحين يحققون بعض النجاح ينسبونه إلى أنفسهم بدلاً من أن ينسبوه إلى الله تعالى. شأنهم شأن الأغبياء الذين قال الله تعالى عنهم في القرآن الكريم إنهم إذا أحرزوا رقيًا قالوا إنما هو نتيجة علمنـا وذكائنـا وقوتنا، ولولا ذلك لما أحرزنا الرقي (الزمر:٥٠)، وإذا فشلوا في شيء نسبوا فشلهم إلى الله تعالى (الفجر:١٧). فالمسلمون يعزون كل عيب إلى الله تعالى، وينسبون كل ميزة إلى أنفسهم. ولو أنهم غيّروا سلوكهم هذا لعملوا بالجد والنشـاط والحـب، وتعلموا التوكل الحقيقي، ومن رُزق التوكل الحقيقي لم يبق في نجاحـه شـك ولا شبهة.

ثم يقول الله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾.. علمًا أن قوله تعالى ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يعني في ست مراحل.

والعرش ليس شيئًا ماديًا كما يظن الناس عادة، وليس بشيء روحـاني أيضًـا. ذلك لأن الله تعالى يقول هنا ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ من جهة، وجهة أخـرى يصف نفسه بقوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(الشورى:١٢)، لذا فإن استواء الله ﷻ على جسم مادي أو جسم روحاني يتعارض مع عظمته. الحق أن فعل "استوى" قد ورد في حق الله ﷻ على سبيل الاستعارة وليس بمعناه العام. فبما أن استواءه على جسم مادي أو جسم روحاني محالٌ فلا يمكن أن يكون العرش شيئًا ماديًا أو روحانيا، بل سيفسَّر بشيء يخص ذات البارئ تعالى. وبما أن الشيء الذي يخص ذات الله تعـالى هو صفاته فليس المراد من العرش إلا ظهور خاص للصفات الإلهيـة. وحيـث إن

القرآن الكريم لا يجيز نسبة التجسد من أي نوع إلى الله تعالى فكيف يمكن أن يقول القرآن أن الله ﷻ مستوٍ على عرش مادي.

الواقع أن صفات الله تعالى تظهر بطريقين: بعضها تظهر ظهورًا تنزيهيًا كما يشير إلى ذلك لفظ "العرش"، وبعضها تظهر ظهورًا تمثيليًا مثل صفات "الرب" و"الرحمن" و"الرحيم" و"ملك يوم الدين". وصفات الله التنزيهية هي صفاته الأصلية، وأما صفاته التشبيهية✪ فيتجلى بها على سبيل التنزل والتشبيه، ولذلك تجد الكثير الذين يجهلون حقيقة صفات الله التشبيهية يقعون ضحية للشبهات حول ذات البارئ تعالى. فمثلاً يعترض هؤلاء على صفته تعالى "الرب" ويقولون: هل الله تعالى محتاج حتى يخلق العباد ويربّيهم حتى يعبدوه؟ هذه الشبهة يثيرها كثيرًا أصحاب الثقافة الحديثة والذين درسوا الفلسفة الهندوسية القديمة. كما يقع الناس في الشبهات حول صفات الله الأخرى المتفرعة من صفته "الرب". وليس ذلك إلا لأن التجلي الإلهي الذي يشاهده الناس من خلال صفاته التشبيهية لا يكشف لهم عظمته الحقيقية، بل يكون هذا التجلي ضئيلاً نتيجة ضعف رؤية الإنسان. مثلها كمثل الذي تكون عيونه ضعيفة ولا يقدر على رؤية الضوء القوي، فيلبس النظارة الملونة، فيرى الضوء القوي خفيفًا؛ كذلك فإن الله تعالى يُري الإنسانَ جلوةَ صفاته التنزيهية القويةَ من خلال النظارة الملونة لصفاته التشبيهية حتى تقدر عيونه الضعيفة على رؤية صفاته تعالى، ولا يضيع بصره من شدة جلوة صفاته تعالى. ولكن العاقل كما لا يقيس قوة الضوء بما يُرى من خلال النظارة الملونة، كذلك لا يمكن أن يعترض أي عاقل على هذا النوع من تجلّي الصفات الإلهية لأنه من التجليات التنزلية التشبيهية التي قد تجلى الله تعالى بها نظرًا إلى ضعف بصر

✪ إن صفات الله التنزيهية هي تلك التي لا يوجد لها أي شَبَه ولا انعكاس في خَلقه مثل: الأحد، الأزلي، الأبدي، حي لا يموت، ليس كمثله شيء. أما صفاته التشبيهية فهي تلك التي يوجد لها شيء من الانعكاس والشَبَه في خَلقه، فمثلا إن الله تعالى رحيم وغفور وسخي وكريم، كذلك فإن الإنسان أيضا يرحم الضعفاء ويغفر خطايا الآخرين ويعامل الناس بالسخاء والكرم. *(المترجم)*

الإنسان، وهي تقرّب الإنسانَ من الله تعالى يقينًا. لا شك أن النظارة الملونة تُـري الضوء بشكل خفيف، ولكنها تمكن المرء من الانتفاع من فائدة الضوء على كل حال، ولا يسع أحدًا أن ينكر ضرورة هذه النظارة أو فائدتها. ولو رماها صاحبها لضاعت عيونه أو اضطر لإغلاق عيونه وبالتالي حُرم منافع الضوء. إذًا فلكي يطّلع الإنسان على جلوة الله وعلى صفاته بحسب نطاق القدرة البشرية يُلبسه الله تعالى نظارةَ صفاته التشبيهية؛ فيتمكن بها من معرفة صفاته تعالى، كما تظل عينه الروحانية محفوظة من صدمة التجلي الإلهي القوي الذي يمكن أن يؤدي إلى فقدان بصره دون أن يزيد في علمه ومعرفته شيئًا.

بيد أن لبس الإنسان نظّارةَ الصفات الإلهية التشبيهية يمكن أن يوقعه في بعض الأخطاء حول إدراك عظمة الله الحقيقية، لذلك قد أوضح الله تعالى للإنسان حقيقة الأمر وقال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(الشورى:١٢)، فأشار بذلك إلى عظمته الحقيقية موضحًا للإنسان أنه يجب أن لا يسيء فهم صفتي الرب والرحمن وغيرهما من صفاته تعالى، لأنه تعالى ليس بالرب فقط بل هو رب العرش في الواقع، أي أن أحد طَرَفَي ربوبيته متصل بالمخلوق وطرفه الآخر متصل بالعرش، فلا تقيسوا ربوبيته بربوبية البشر، ولا تخوضوا في النقاش بأنه تعالى إنما يربي البشر لأنه محتاج إليهم كما يربي الآباء أولادهم كونهم محتاجين إليهم. إن ما يهمّكم هو أن تتأكدوا ما إذا كان لهذا الكون رب أم لا. ولو ثبت وجوده تعالى فلا داعي بعد ذلك أن تحاولوا معرفة كنهه وماهيته، لأن الحقيقة النازلة من العرش لا يمكن أن يعرفها الإنسان الذي هو على الفرش. فإذا انكشفت على المرء حقيقة ما فالأفضل له أن يعترف بها، ولا يحق له أن يقول لا بد أن يعرف أولاً من أين وكيف تُخلق الربوبية والرحمانية والرحيمية والمالكية.

باختصار، إن العرش اسمٌ لصفات الله التنزيهية التي هي أزلية وغير متبدّلة، وليس بين المخلوق وبين الله أدنى مشابهة بشأنها. بيد أن الإنسان يعرف الصفات التنزيهية من خلال الصفات التشبيهية، إذ لولا الصفات التشبيهية لم يتيسر لنا أي إدراك – مهما كان ضئيلا – بكون الله تعالى كاملا في صفاته.

فإذا فهمنا أن العرش هو نظام صفات الله التنـــزيهية التي تكون صفاته التشبيهية بمثابة حاملة لها، فسيكون المراد من قوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾.. أن الله تعالى لما أكمل خلق السماوات والأرض أخذتْ صفاته التنـــــزيهية في الظهـــور بصورة كاملة. ولما كانت الصفات التنـــزيهية تتجلى من خلال الصفات التشبيهية فيكون المراد من قوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ..﴾ أن الصفات التشبيهية التي كانت تابعة للعرش - أي لمركز الصفات التنـــزيهية - أخذتْ كل واحدة منـــها تعمل عملها.

وقد أشار الله تعالى بذلك إشارة روحانية، وهي أنه تعالى مـــا دام قـــد خلـــق بواسطة الإسلام سماء جديدة وأرضًا جديدة، فقد استوى الآن على عرشه.. أي أنه تعالى لن ينصر محمدًا ﷺ من خلال صفة واحدة فحسب، بل سيسخر لنصرته جميع صفاته التابعة للصفات التنـــزيهية. ولما كان محمد ﷺ قد توكل على ربه بصدق، ولما كان الإله الذي يعرضه محمد على الدنيا إلهًا حيًّا لا يأتي عليـــه الفنـــاء أبـــدًا، فسيتلقى محمد ﷺ التأييد الإلهي في كل عصر، وستكشف صفات الله تعالى صدقه ﷺ دائمًا.

ثم يقول الله تعالى ﴿الرَّحْمنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾.. أي أن الإله الرحمن هو الـــذي قد منّ عليكم بكثير من النعم بسبب رحمانيته، وخلـــق لكـــم الأرض والســـماء والشمس والقمر؛ وإذا ساورتكم أي شبهات حول صفته الرحمن رغم هذه الـــنعم الكثيرة، فاسألوا عنها من هو خبير.

وقوله تعالى ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ يُشبه قولهم "لقيت بزيد أسدًا".. أي لقيت بزيد الذي هو أسد لشجاعته وبسالته، أو قولهم "لقيت بزيد البحرَ".. أي وجدتـــه في جُوده وكرمه بحرًا. فضمير الغائب في ﴿بِهِ﴾ يرجع إلى الرحمن، والمعـــنى: اســـأل الرحمن الذي هو خبير ويعلم الحقائق كلها. بمعنى أنكم إذا فشلتم، رغم رؤية نظام هذا الكون الشاسع والدال على كون الله رحمانا، في إدراك بأنه تعالى كما تجلّـــى برحمانيته في الدنيا المادية تجليًا رائعًا، فلا بد أن يكون قد دبّر في العالم الروحـــاني أيضًا نظامًا لإصلاح عباده، وكذلك إذا فشلتم في معرفة صدق النبي ﷺ، فعلـــيكم

أن تسألوا الله الذي هو خبير.. أي عليكم أن تطرقوا الباب الإلهي وتخرّوا على عتبة الله وتدعوه وتبتهلوا، فسوف يرحمكم ويكشف عليكم الحقيقة بشكل أو آخر فضلاً منه ورحمة.

وقال البعض الآخر إن الباء في ﴿به﴾ جاء بمعنى "عن"، ومثاله قول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾(المعارج: ٢).. أي "عَنْ عذاب واقعٍ"؛ وعليه فقوله تعالى ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ يعني: اسأَلْ عنه خبيرا. ويقول هؤلاء المفسرون إن الله تعالى قد ذكر من قبل خَلْقَه للسماوات والأرض واستواءَه على العرش، وهي أمور لا يعلم تفصيلها إلا الله تعالى، لذلك قال تعالى هنا ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾.. أي اسأل الله تعالى عن تفصيل هذه الأمور لكونه وحده خبيرًا بها.

وقال البعض إن الخبير هنا يعني مَن عنده علم كامل بأسماء الله وصفاته، وهو جبريل وأهل الكتاب والعلماء. (القرطبي والرازي وفتح البيان)

وعندي أنه إذا كان المراد من ﴿خَبِيرًا﴾ شخص غير الله تعالى فهذا الخبير هو سيدنا محمد ﷺ حيث وهبه الله تعالى بوحيه علم صفاته الكاملة. ولما كان كفار مكة ينكرون وحي الله تعالى، والوحي لا يعطى نتيجةَ عمل من الإنسان بل هو هبة يعطيها اللهُ أحدًا نتيجة صفته الرحمن، فكانوا لا يؤمنون برحمانية الله تعالى بالمعنى الذي يصفه به الإسلامُ. وبما أن صفة الله الرحمن تدحض عقائد الكافرين وتذكّرهم باستمرار بأن الله تعالى جعل الإنسان مالكًا لهذه الأحجار وحاكمًا على كل ذرة من الكون، وأعطاه كل هذه النعم نتيجة صفته الرحمن، ومع ذلك فإنهم يسجدون لهذه الأصنام المنحوتة من الأحجار وينكرون كون الله رحمانًا؛ فكان طبيعيا أن يقولوا في أنفسهم: وما هذا الرحمن؟ فأمرهم الله تعالى وقال: إذا كنتم تغضّون البصر عن هذه النعم العظيمة التي قد أنعمنا بها على الدنيا كلها بناء على صفتنا الرحمن، كما تنكرون ضرورة الوحي الذي أنزلنا بحسب صفتنا الرحمن أيضا، فهناك طريقان لحل هذه المعضلة: الطريق الأول هو أن تخرّوا أمام الله تعالى وتدعوه ليكشف عليكم صدق الإسلام ومحمد ﷺ، ويجلّي عليكم عظمة التوحيد؛ ولو أنكم أنبتم إلى الله تعالى بخلوص النية واستنزلتم رحمته بالدعاء، فلا بد أن ينوّر زوايا

قلوبكم المظلمة بنوره، ويكشف عليكم حقيقة هذه الشمس الروحانية التي أنارها لإزالة ظلمات الدنيا. أما الطريق الثاني فهو أن ترجعوا إلى محمد رسول الله ﷺ وتسألوه حَلَّ معضلتكم، ولو فعلتم ذلك فسوف تعرفون أن شخصيته ووجوده ﷺ لبرهانٌ حيٌّ على ظهور صفة الله الرحمن.

والحق أن الله تعالى قد أنعم على النبي ﷺ منذ ولادته إلى شبابه، ومنذ شبابه إلى بعثته، ومنذ بعثته إلى يوم لِحاقه بالرفيق الأعلى، بمَنٍ لا نهاية لها حتى لا يسع أشدّ المعارضين بعد رؤيتها إنكار كون الله رحمانًا. وقد أشار القرآن الكريم بكلمات وجيزة إلى هذه النعم والمنن التي لا تعد ولا تحصى فقال ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ۞ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ۞ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾(الضحى:٧-٩).

علمًا أن المراد من قول الله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى﴾ أنه وجد النبي ﷺ هائمًا في حبّه تعالى وحيرانا لإصلاح قومه، فدلَّه على السبيل الذي يؤدي إلى ذلك.

لقد رسم الله تعالى هنا حياة النبي ﷺ الطيبة رسمًا جميلاً وبشكل موجز جدًا. فقد تُوفي أبوه ﷺ وهو في بطن أمه، وهكذا صار يتيمًا قبل مولده (السيرة الحلبية الجزء الأول ص ٥٨-٥٩: باب وفاة والده ﷺ). ولكن رحمانية الله تعالى تولت عنايته، فألقى الله في قلب جده عبد المطلب حبًا شديدا تجاهه منذ ولادته، فكان لا يتحمّل غيابه عن أنظاره لوقت قليل، وقام بتربيته بكل حبّ ودلال. (المرجع السابق ص ١٢٥: باب وفاة أمه ﷺ، والسيرة النبوية لابن هشام: وفاة آمنة وحال رسول الله ﷺ مع جده)

ثم حين كان أهل النبي ﷺ يبحثون عن مرضع له فارتْ رحمانية الله ثانيةً فأتت إليهم بحليمة. وكانت حليمة امرأة فقيرة لم ترد أي عائلة من مكة أن تترك ولدها في كفالتها، ولكن الله تعالى ترحَّمَ على حليمة الفقيرة وعديمة الحيلة، فوضع في حضنها تلك اللؤلؤة اليتيمة التي اسمها محمد ﷺ. ثم ألقى الله في قلبها حبًا جمًا للنبي ﷺ فكانت لا تتحمل غياب النبي ﷺ عنها قليلا وكانت تزجر أولادها بشدة إذا تركوه وحيدًا. (المرجع السابق ص ١٢٢: باب ذكر رضاعه ﷺ)

ثم لما توفي عبد المطلب وهبه الله برحمانيته عمًّا شفيقًا كأبي طالب، فوقف بجنبه في أحلك الساعات و لم يخذله رغم تهديد القوم.

ثم لما بلغ النبي ﷺ سن الشباب فإن رحمانية الله تعالى ألقت حبَّه في قلب خديجة- رضي الله عنها - لِما رأت من صلاحه وورعه، فبعثت إليه تطلب منه الزواج. (السيرة النبوية لابن هشام المجلد الأول : حديث تزويج رسول الله ﷺ خديجة رضي الله عنها)

وحين احتاج النبي ﷺ إلى الأصدقاء، فإن رحمانية الله وهبت له صديقًا وفيًّا كأبي بكر رضي الله عنه.

ثم لما امتلأ قلب النبي ﷺ حزنًا برؤية ما آل إليه قومه من حالة متردّية، وبلّلتْ دموعُه مكان سجوده في غار حراء، اختاره الله تعالى برحمانيته وجعله ربّانًا لسفينة السماء، لينقذ العالم الموشك على الغرق.

كذلك لما احتاج النبي ﷺ إلى المال لسد الحاجات القومية ألقى الله الرحمن في قلب خديجة - رضي الله عنها - لتضع كل ما تملك في يد النبي ﷺ.

ثم إن رحمانية الله تعالى قد وسّعت نطاق فيوض النبي ﷺ روحانيا وماديا، فإن مئات الآلاف من الناس شفوا ظمأهم الروحاني من نبعه الروحاني، كما أن مئات الآلاف من رُعاة الإبل أصبحوا ملوك العالم ببركة كونهم خدامًا له ﷺ.

ثم إن نزول القرآن الكريم، هذا الشرع الدائم الأبدي، يشكل برهانًا عظيمًا على أن الله رحمن. ذلك لأن الوحي لا ينزل نتيجة أعمال الناس، وإنما ينزل نتيجة صفة الله الرحمن منّةً على العباد، ولذلك قال الله تعالى ﴿الرَّحْمنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾(الرحمن:٢-٣).. أي أن الله الذي علّم القرآن نتيجة صفته الرحمن، ولولا أنه رحمن لما نزلت نعمة كالقرآن على مخلوق أرضيّ كالإنسان.

فثبت من هنا أن حياة النبي ﷺ مثالٌ حيٌّ على ظهور صفة الله الرحمن، كما أن الوحي النازل عليه أيضا برهان ساطع على أن الله رحمن. فمن ساور قلبَه الشك حول رحمانية الله تعالى فليُمعن النظر في حياة محمد ﷺ وفي الوحي الذي نزل عليه، ولسوف يجد أن كل صفحة من كتاب حياته ﷺ وأن كل آية من وحيه لبرهانٌ حيٌّ على أن الله رحمان، تمامًا كما أن كل ذرة من الكون تشكّل دليلاً ساطعًا على كونه تعالى رحمانًا. بل إن جميع صلحاء أمة المصطفى ﷺ وأوليائها وأبدالها وأقطابها ومجدديها ومصلحيها وغيرهم ممن نزلت عليهم بركات الله

وأفضاله اللامتناهية، ببركة كونهم خداما للرسول ﷺ، والذين صار كل واحد منهم محمدًا مصغرًّا بحسب درجته، أقول إن كل واحد من هؤلاء كان برهانا عظيما على أن الله تعالى رحمان، ذلك لأن كل البركات والنعم التي نالها هؤلاء لم ينالوها بقوتهم وجهدهم، وإنما نالوها بفضل اتّباعهم لمحمد ﷺ ونتيجة اغترافهم من ذلك النهر العظيم الذي لا شاطئ له، والذي أجراه الله تعالى بفضله لإزالة ظمأ عطاشى العالم. لقد بيّن مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام هذا المعنى في بيت شعر له بأسلوب رائع فقال:

ایں چشمۂ رواں کہ بخلق خدا دہم
یک قطرۂ ز بحر کمال محمد است

(مجموعة اشتهارات (بالأردية) المجلد الأول ص ٩٧: اشتهار ٢٠ يناير/كانون الثاني ١٨٨٦)

أي أن هذه العين الجارية التي أسقي منها مئات الآلاف من خلق الله تعالى ليست ملكًا لي، وإنما هي قطرة أقدّمها لعطاشى العالم مغترفًا من بحر فيوض محمد وكمالاته ﷺ.

إذًا، فهؤلاء الصلحاء والأبرار الذين يرى الناس محمدا ﷺ يمشي بين الناس من خلال شخصياتهم أيضًا يُدرَجون تحت قوله تعالى ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾، لأن الذين قد نسوا رحمانية الله تعالى إذا رأوا حياة هؤلاء الصالحين ما وسعهم إلا الاعتراف بأن الله رحمن فعلاً.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦١﴾

شرح الكلمات:

نفورا: نفَرت الدابة: جَزَعَتْ وتباعدت، ونفَر القومُ: تَفرَّقوا، ونفَر القومُ عن كذا: أعرضوا وصدّوا. (الأقرب)

التفسير: الرحمن من صفات الله الشهيرة، وقد ذكرها القرآن مرارا. والرحمن هو مَن يُحسن إلينا بدون مقابل أو سعي وعمل منا. وعلى سبيل المثال، لقد خلق الله تعالى لنا الشمس والقمر وغيرهما من الأجرام السماوية بدون أي عمل منا. كذلك إن الهداية التي تتيسر لنا من خلال شريعة الله تعالى أيضًا تنزل نتيجة صفة الله الرحمن وليس نتيجةً لأي عمل منا، بل الحق أن الشريعة لا تنزل إلا حين تقع الدنيا في السيئات وتترك الله كلية.

وإليك الآن بعض الأدلة على هذا المعنى للرحمن.

أولا: لم تستعمل العرب لفظ الرحمن كصفة بدون أي تقييد قط إلا لله تعالى. إنهم لم يصفوا أحدًا بصفة الرحمن إلا بعد دعوى النبي ﷺ، مما يدل أنهم فعلوا ذلك عنادًا وتعصبًا فقط؛ ومع ذلك فهم لم يستعملوه على إطلاقه بل استعملوه مضافًا، فمثلا سمّوا مسيلمة الكذاب "رحمن اليمامة". إذًا، فإن هؤلاء القوم أيضًا لم يتجاسروا على استعمال لفظ الرحمن لمسيلمة بدون الإضافة، أو بمعنى رحمن الخلق كلهم، وذلك لأنهم كانوا يعلمون أن اللغة العربية لا تجيز ذلك بشكل من الأشكال. (انظر لسان العرب)

إن لفظ الرحمن يدل في اللغة العربية على رحمة لا تظهر من أحد سوى الله تعالى، وهي تلك الرحمة التي تنزل بدون مقابل. والواقع أن كل رحمة مما سوى الله تعالى تكون مقابل منّة من أحد في الماضي أو على أمل إحسانٍ منه في الحاضر أو في المستقبل. وإذا لم يكن بنيّة من يحسن إلى غيره أن ينال جزاء على إحسانه فمع ذلك ينال الجزاء عليه حتمًا. ذلك أن إحسان الناس لا يخلو من شكلين، فإما أنهم يريدون به رضى الله تعالى، ورضاه تعالى أيضًا نوع من الجزاء، أو أنهم يبدون الإحسان والرحمة بمقتضى ضروراتهم التمدنية، وهذا أيضًا نوع من الجزاء. وإذا لم تكن هناك ضرورات التمدن فإنهم ينالون جزاء إحسانهم بشكل آخر. ولكن المنة الإلهية تكون خالصة تمامًا.

ثانيًا: إن علماء اللغة العربية أيضا قد أشاروا إلى هذا المعنى للفظ الرحمن. يقول إمام النحو أبو علي الفارسي: "الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة، يختص به الله تعالى، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين قال تعالى ﴿وكانَ بِالمُؤْمِنين رحيمًا﴾". (فتح البيان مجلد ١ ص ٢٥)

ثالثا: والحديث أيضًا يؤيد هذا المعنى. فعن عبد الرحمن بن عوف أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "قال الله تعالى: "أنا الله، وأنا الرحمن، خلقتُ الرَحِمَ وشققتُ لها اسمًا من اسمي، فمَن وصَلها وصلتُه، ومن قطَعها بَتَتُّه". (الترمذي: أبواب البر والصلة، باب ما جاء في قطيعة الرحم)

هذا الحديث أيضا يوضّح معنى الرحمن، لأن صلات رحم الأُمّ أشبه ما تكون بالرحمانية. فمثلاً حبُّ الأمّ لولدها هو حبّ طبيعي كلية. لا شكّ أن الأُمّ تنتفع من ولدها في بعض الأشكال، ولكن لا يكون في معاملتها للطفل أي رغبة في الجزاء. فكون الرحمانية منبعًا لعلاقات الأمّ مع ابنها دليل على أن الرحمانية اسم لرحمة بدون مقابل.

رابعا: ثم إنه من الثابت من قواعد العربية أن الرحمن هو على وزن "فعلان"، وهذا من أبنية المبالغة والسعة والكثرة والغلبة. والرحيم "فعيلٌ" ويدل على حصول الرحمة مرة بعد أخرى. فالرحمن من هو واسع الرحمة، تشمل رحمته الجميع بدون استثناء، ولا تختص بالعاملين بل تشمل جميع المخلوقات، فينتفع منها الإنسان والحيوان والمؤمن والكافر.

ومما يدل على أهمية صفة الرحمانية أن الإنسان كلما ارتقى إلى مقام جديد احتاج إلى أشياء جديدة، بل لو تدبرنا لوجدنا كل الأشياء ترتقي بالتدريج وتتجدد حاجاتها في كل مرحلة. خذوا مثلا سلسلة من الجبال، فهي لا ترتفع فجأة بل تدريجيا، فأولاً ترى ارتفاعات في الأرض، ثم صخورا، ثم تلالا، ثم هضابا عالية ثم جبالاً شامخة. وترى في تطوُّر الخضار والفواكه أيضا تدريجًا، فأوّلاً تُبذر البَذرة، ثم تتفتح، ثم يخرج منها الورق وتتأصل جذورها في الأرض، ثم تنبت أكثر حتى يخرج لها ساق. فثبت من هنا أنها تنمو على مراحل. كذلك كل الأشياء تتطور على

مراحل وعند كل مرحلة تتجدد حاجاتها. وهذا هو حال الإنسان أيضا، فكلما أحرز درجة من الرقي احتاج إلى أشياء جديدة للمرحلة التالية. فمثلا يولد الطفل فيحتاج إلى غذاء ليّن، فيجده في ثدي أمه، وعندما يتقوى قليلا يحتاج إلى غذاء صلب إلى حدّ ما، فتنبت أسنانه. ثم يكبر ويصبح قادرا على التناسل، فيعطيه الله زوجه، وإذا فتح عيونه وجد الشمس لكي يرى بمساعدة ضوئها الأشياء. ثم إن العين كانت بحاجة إلى رؤية أشياء جميلة لتشعر بالنضارة والطراوة، فخلق الله لها مناظر خلاّبة ووجوهًا جميلة وأزهارًا ملونة وأنواع الخضار والأشجار والأعشاب ومئات الأنواع من الحيوانات والطيور. فإذا جعل الله تعالى له آذانا جعل إزاءها أصواتًا ذات فروق كثيرة، إذ لو كان صوت جميع المخلوقات واحدًا لصعُب التمييز بينها؛ فعندما نسمع صوت الحصان أو الحمار نعرف بسهولة أنه صهيل الحصان أو نهيق الحمار. كما جعل الله تعالى بين أصوات الناس أيضا فروقا دقيقة نميز بها بين صوت إنسان وآخر. ثم إن الله تعالى إذا وهب لنا حاسة اللمس جعل إزاءها بعض الأشياء ناعمًا وبعضها صلبًا، وبعضها زلقًا وبعضها خشنًا، ثم جعل الخشونة والنعومة أيضًا درجات، فأنت تلمس الحرير فتجد فيه نعومة وتلمس شيئا مطّاطيّا فتجد فيه نعومة أخرى، وهذا الفرق يساعدك على التمييز بينهما.

مجمل القول، إنك لو تدبّرت أي شيء لوجدت له سلسلة طويلة من الحلقات، وبعد كل حلقة تتجدد الحاجات التي تجدها موجودة. وهذا هو معنى الرحمن أي أنه تعالى يهيء كل ما يحتاج إليه الشيء في كل مرحلة سلفًا، سواءً أكانت هذه الحاجات مادية أو روحانية أو علمية.

لقد اكتشف العلماء الآن أمرًا جديدًا، فقالوا إن الدماغ مثل خلايا كثيرة تُخزّن فيها المعلومات التي يجمعها الإنسان عبر حواسه، وهذه الخلايا إذا نفذت خُلقت خلايا جديدة. وإن هذا الاكتشاف الجديد مثال رائع لصفة الله الرحمن حيث اتضح منه أن المرء كلما بلغ مرحلة من الرقي خلق الله تعالى للمرحلة التالية من رقيه أسبابًا جديدة، ومن المحال أن تكون هناك ضرورة حقيقية ولا يتيسّر لها ما يسدّها.

لقد ظن البعض خطأ أن لفظ الرحمن معرّبٌ.. أي أنه ليس عربي الأصل، بل نُقل من لغة أخرى، حتى إن أديبًا أريبًا مثل المبرّد أيضا وقع في هذا الخطأ. فقد "حكى ابن الأنباري في "الزاهر" عن المبرّد أن الرحمن عبراني وليس بعربي (ابن كثير: سورة الفاتحة). ولكنه قول باطل بالبداهة، لأن لفظ الرحمن عربي الأصل، وقد ورد في كلام شعراء العرب قبل بعثة النبي ﷺ. فمثلا قال سلامة بن جندب الطهوي:

عجلتم علينا إذ عجلنا عليكم
وما يَشَأِ الرحمن يعقد ويطلقُ

(المرجع السابق)

والحق أن هؤلاء قد اعتبروا لفظ الرحمن أعجميًا لعدم استيعابهم معنى قول الله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾. وقد ازداد سوء فهمهم مما ورد في البخاري بأن النبي ﷺ لما قال لعليّ رضي الله عنه عند عقد صلح الحديبية أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم، قال ممثل الكفّار: "أما الرحمن الرحيم، فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتبْ باسمك اللهم" (المواهب اللدنية: صلح الحديبية). والحق أن كلمات هذه الرواية نفسها تبين أن الكافرين لم يكونوا يستغربون من لفظ الرحمن، لأنهم قالوا أيضًا لا نعرف ما الرحيم، مع أن الرحيم عربي عند الجميع. فاستغرابهم من لفظ الرحيم يدلّ بوضوح أنهم لم يكونوا ينكرون كون كل من لفظي الرحمن والرحيم عربي الأصل، وإنما كانوا يعترضون على أن تبدأ المعاهدة باسم الله الرحمن الرحيم، إذ كان العرب يقولون فقط "بسم الله"، أما الرحمن الرحيم فكانوا يعتبرونهما بدعة إسلامية، فمنعوا النبي ﷺ من إضافة هذين اللفظين في المعاهدة حيث اعتبروا ذلك فرضَ الإسلام عليهم.

فماذا كان الكافرون يقصدون بقولهم هنا في سورة الفرقان ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾؟ فاعلم أن القرآن الكريم يؤكد أن لفظ الرحمن كان معروفًا لدى العرب، وكان الكافرون يستعملونه حيث نقل الله تعالى قولهم ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾(الزخرف:٢١)، وعليه فالمراد من قولهم هنا ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ أنهم بسبب حرمانهم من علوم السماء كانوا لا يعرفون ما يتضمنه لفظ الرحمن من مفهوم دقيق

يقدّمه الإسلام، وهو مَن يرحم بدون عمل ومقابل. ولما كان هذا المعنى للرحمن يتعارض مع عقائدهم فكانوا يتضايقون منه ويقولون ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾. فما كان قصدهم من قولهم أنهم لا يعرفون هذا اللفظ، بل كانوا غير مستعدين أن يقبلوا هذا المعنى للرحمن.

وباختصار، لم يكن اعتراض الكفار على لفظ الرحمن بل على الاصطلاح الجديد الذي قدمه القرآن والذي كان غريبا على العرب. ومثله كمثل لفظ الصلاة، الذي هو عربي الأصل، ولكن القرآن جعله اصطلاحًا، فكان بإمكان الكفار أن يعترضوا على هذا اللفظ أيضًا ويقولوا "وما الصلاة"؟

ومثاله الآخر قول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾(إبراهيم:٥)، بينما ورد في مكان آخر قالت أمة شعيب عليه السلام ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ﴾(هود:٩٢). وهذا لا يعني أن شعيبًا كان يحدّثهم بلغة لا يفهمونها، بل المراد أنهم كانوا لا يفهمون الأمور الدينية التي كان يبيّنها لهم. كذلك كان العرب يستعملون لفظ الرحمن، ولكن القرآن الكريم قد أطلق الرحمن على من يعطي بدون عمل وسعي، وهذا المعنى كان مرفوضًا لدى الكفار لأن التسليم به يبطل عقائدهم الوثنية. ولذلك تجد النصارى لا يستعملون لفظ الرحمن؛ لأن المعنى الذي بيّنه القرآن الكريم لهذا اللفظ يبطل عقيدة الكفارة المسيحية، مؤكدًا أن الله تعالى يغفر للإنسان تقصيراته وأخطائه، على عكس ما تقوله عقيدة الكفارة. بيد أن هذا لا يعني أن المسيحيين لا يعرفون لفظ الرحمن، وإنما المراد أنهم لا يقبلون اصطلاح الرحمن كما قدّمه القرآن الكريم، ولذلك لا يكتبون في بداية كتبهم باسم الله الرحمن الرحيم، بل يكتبون باسم الله الرحيم، أو باسم الله الهادي الجواد.. وما إلى ذلك.